الأنهار العكرة

رواية

عماد البليك

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر

الطبعة الأولى، 2004.. القاهرة، الخرطوم

إهداء..

إلى صديق الطفولة عمر محمد العوض الذي أخذته الحياة،

مثلما أخذتني،

كلانا يرسم طريقه بريشة

لا تعرف الصمود أمام رياح الحلم القاهرة..

أحزان الأنهار

1

كنت أنتظر بفارغ الصبر هذا اليوم الذي أحمل فيه حقائبي وأعود إلى هناك، عشر سنوات وأنا مهاجر فقدت فيها معنى انتمائي لذاتي حتى تخيلت أنني لست أنا. كانت عودتي أشبه بحلم صعب التحقق، في حين كان سفري قبل تلك السنوات العشر حلم من نوع آخر، مستحيل التحقق، للدرجة التي كنت أقول فيها لنفسي أنني لن أركب طائرة في يوم ما.

يوم ارتفعت بي الطائرة في السماء، بدأت الخرطوم من تحتي كقطعة لحم مسرطن نزعتها عن جسدي، كأنني كنت أقضي ساعات حياتي الأخيرة التي انتهت بشنقي وصعود روحي إلى السماء، كنت أقول ذلك، واكتشفت بعد زمن وجيز عندما تخدرت بجراح الاغتراب أن ذلك الشيء الذي صعد إلى السماء في فجر شتوي حار هو جسدي وليس روحي.

نعم كنت أعيش بجسدي طوال السنوات العشر التي مضت، تركت عاداتي المألوفة أن أقرأ أو أكتب أو حتى أفكر، أصبحت مجرد آلة على شكل إنسان، تماما مثل طاحونة أولاد العوض، تبدأ في طحين الذرة والقمح في الفجر ولا تسكت إلا في المساء.

وأنا أجلس وحيدا في غرفتي الصغيرة في وقت متأخر من الليل، كنت أخال الطاحونة قد توقفت عن الطحين، وبدأت في الأنين، واكتشفت أن ذلك الأنين

كان أنيني، في حين تدفقت الدموع على الطاولة التي أجلس ورائها محاولا أن استرجع مقدرتي القديمة في الكتابة.

استعصت عليّ الكتابة وآبى القلم أن يطاوعني، كأنه كان يعاندني، أو ربما كنت أنا قد تغيرت كثيرا دون أن أعرف، وفكرت قليلا بعد أن وضعت الورق جانبا وأنا أنفث دخان السيجارة في الغرفة المغلقة "هل يمكنني أن استمر في احتمال الحياة بهذا الشكل الممل."

لكي تفهموا شكل حياتي سأقول لكم باختصار أنني كنت أعود من العمل متأخرا في منتصف الليل وأظل مستيقظا إلى أن تشرق الشمس والتي نادرا ما أراها لأنني أكون مختفيا في غرفتي خوف أن يراني أحد رفاقي في السكن الذين توّلد لديّ خوف دائم منهم، أصبحت أكره أن أرى أحدا من بني جلدتي أو أتعامل معه، أحس بأن ضحكهم مصطنع وباهت، ومطالباتهم لا تنتهي، وعيونهم دائما موجهة نحو إخفاقي في الحياة، هم لم يكونوا كذلك قبل أن أغادر الوطن وكنت اسأل نفسي هل تغير الغربة طباع الناس، وعندما أعكس السؤال على ذاتي أجد الجواب واضحا في حالتي فأنا الآن تغيرت كثيرا.

عادة ما أنام بعد شروق الشمس، لا استيقظ إلا بعد الظهيرة، أقوم كالمجنون من سريري باحثا عن شيء ما ضائع لا أعرف ما هو، بعد لحظات أكتشف أنني كنت أبحث عن ذلك الولد الذي أندفن هناك في البلد على ضفاف النهر ومات.

لأمر ما لا أعرف ما هو بدأت لي الغربة حياة ثانية لا يفقد فيها الإنسان عاداه فحسب بل موقعه من الزمان والمكان، وكنت أشعر بأن المغتربين لا يعيشون في مدينة يحلمون فيها بالثراء والعودة السريعة لبلادهم وإنما يعيشون في بئر عميقة لن يستطيعوا ان يخرجوا منها بعد أن وقعوا فيها.

ادخل الحمام أغسل جسدي وأمارس العادة السرية، جسدي كأنه لا ينتمي لي، اخرج سريعا إلى الغرفة أرتدي ملابسي أسابق الشوارع إلى عملي، هذا الروتين القاتل الممل، حيث أحاط بالغباء والخوف الدائم وتجاهل قيمة الأشياء، وكيف يصنع الإنسان قيمة للشيء وقد فقد الإحساس وتحول هو في حد ذاته لشيء تافه لا قيمة له.

كنت أعمل في مطبعة صغيرة مجلدا للكتب التراثية، تعودت على هذا الروتين القاسي والطلبات المتواصلة دون انقطاع لصاحب العمل، أجلد مائة كتاب في اليوم على الأقل، كلما جلدت كتابا أضيف مزيدا من الرجعية للعرب .

في البداية كان العمل صعبا عليّ، وبمرور الأيام تحول لعمل آلي أؤديه كأنني لا أفعل شيئا، لا فرق بيني وبين طاحونة أولاد العوض، تطحن الذرة دون أن تدرك أنها تطحنها، الفرق بيني وبينها أن الطاحونة كانت لا تفكر لا تتألم وأنا أتألم وأفكر واتعذب.

كنت قد قلت لنفسي وأنا في سماء الخرطوم يوم غادرتها أنني سأعود بعد عامين على الأكثر، سأكون قد جمعت مالا يمكنني من الزواج وبناء بيت صغير

في أطراف الخرطوم أعيش فيه مستور الحال، وصناعة مصدر رزق ثابت لي. لكن السنة الأولى مضت والثانية والثالثة و... هأنذا في آخر السنة العاشرة صفر اليدين لا أملك مصروفا يمكنني من البقاء إلى آخر الشهر، بالمعادلات الرياضية التي درستها في الجامعة، بل في المدرسة الأولية يبدو راتبي كافيا لتدبير أحوالي، وإعانة أسرتي في السودان مع توفير مبلغ لا يقل عن 300 دولار كل شهر. سأكون وبناء على المعادلات الرياضية نفسها جمعت 3600 دولار في نهاية العام، أذن من المفترض أن يكون معي الآن 36 ألف دولار. لكن لا شيء معي. أين يذهب المال؟ لا أعرف. هنا لا تستطيع أن تفهم أي شيء، وعليك أن تستمر في الحياة بكل هذا الجهل والسخف أن تنتظر يوما ما ستعود فيه من وجهاء البلد، لكنه المستحيل، المعجزة.

2

أخيرا فتحت جهاز الكمبيوتر، طاوعني "الكي بورد" بعد انتظار طويل دام عشر سنوات، كانت البداية مفتاحا لتحرري من قيد طالما ظللت أحمله وأسير به دون أن أدري .

عندما تكتب ودون أن تفكر في ساعات وحدتك تبدأ نبش المخبوء، يتفتح الذهن كلوزة قطن على الليالي المظلمة في حياتك، تكون قادرا على حمل الفانوس ورؤية الأشياء بوضوح تام.

كتبت في آخر الليل أنني أرغب في أن أكون واقعيا وأن أعود إلى بلدي في الحال.

وكتبت ما قرأته قبل سنوات طويلة عندما كنت أقرأ أن المرء لا ينسب لأرض ليس له موتى تحتها، وتذكرت أن المقولة لماركيز في روايته المشهورة مائة عام من العزلة، هل كان ماركيز يرفض العولمة قبل ميلادها الجديد؟

لم أضع وقتي بحثا عن جواب للسؤال، كتبت هل أنت جبان؟ وإذا كنت كذلك فما الذي تخافه؟ وكتبت أشياء أخرى كثيرة.

وكان أهم ما كتبته لعائشة التي لا أعرف أن كانت ما تزال تنتظرني أم لا، أن أعود إليها بقطار الإكسبرس في الليل، قلت لها:

"سأعود إليك اليوم فصدقيني يا عائشة، سأعود بعد أن خسرت المعركة، لو كنت تحلمين برجل يعيشك في الثراء فلن يكون أنا، ولو كان الأمر بالنسبة لك

لا يفرق كثيرا فلا مانع أن نكلل انتظارنا سويا بالفرح. لا أدري هل يكون فرحنا مؤقتا أم دائما، هل سيمتد بنا حبل الفقر أم لا ؟."

تخيلت أنها تقرأ كلامي فتقول لي :

"لا عليك يا محمد، نحن ولدنا بقلب واحد وهم واحد، المال في الدنيا لا قيمة له أن ذهبت المودة بين الناس."

كنت أكتب وأتخيل وكان خيالي قاصرا وكذابا، كيف لا يكون كذلك وقد تغيرت أشياء جوهرية كثيرة هناك في بلدي، وأنا لا أدرك. حتى عائشة تغيرت بعد أن تلونت بلون الزمن الجديد القاهر، الزمن الذي صار فيه الناس مواعين خراء، كان ذلك قدرا لا تملك عائشة فرارا منه.

هل كان بإمكانها أن تحتمل البقاء حتى يذوب جسدها تحت الشمس الحارقة، أن تصبر على رجل جاف حار كهذه الأرض وهذه الشمس. لو كان يضع لها تقديرا كما يدعي لاتصل بها وسألها عن أحوالها، أو كتب لها رسالة على الأقل يقول فيها أنه ما يزال حيا. لكنه لم يفعل شيئا من ذلك طوال خمس سنوات مضت كأنها لم تكن. لو لم أجد لها العذر لما كنت منصفا فأنا نفسي تغيرت.

في الصباح كنت قد حزمت حقيبتي الوحيدة، خرجت على غير عادتي مبكرا اشعر بنشاط جمّ، وصلت إلى مكان عملي في الثامنة صباحا، في هذا الوقت لا يكون ثمة أحد بالمكان إلا مدير المطبعة الذي استغرب حضوري فالعمل يبدأ في الرابعة مساء، وهو متأكد أن هذا وقت كوابيسي أصارعها في نوم متقطع.

سألني :

"ما بك ؟ . "

لم أتكلم كثيرا، قلت له:

"خذ ."

كنت قد كتبت ضمن ما كتبت بالليل استقالتي عن العمل .

قرأ الورقة، تغيرت ملامح وجهه، خلع نظارته ونظر إلى بغضب يقول لي مجددا:

"ما بك ؟ ."

لم أرد عليه، لم اقل له أن الساعة اقتربت، تخيلت أنه يفكر في حجم العمل المفترض إنجازه ما بعد الظهيرة، من الصعب عليه أن يدبر عاملا بديلا في يوم واحد أو يومين، عامل بأجر زهيد مثلي، لا يساومه ويعمل كالحمار دون كلل أو شكوى.

لم يكن يتخيل أن الحمار سينتفض ذات يوم عندما يرى صورته في المرآة فيكتشف أنه كان يخدع نفسه، عندما يرى في المرآة وجها جميلا لا يليق بحمار، وجه لا ينتهي من أعلاه بأذنين كبيرتين، وقد كان كذلك من قبل.

3

عصافير الشتاء، قفزت العبارة إلى ذهنه فجأة، اشتم رائحة القطارات ومراحيض السايفون، أزمنة قاسية ملونة بفراشات الوجع، ثمة أشياء لا تنسى، لكن التفاصيل تغيب في غياهب الوجود الخفية، يتذكر أنه عرف طعم الاغتراب مبكرا، وجده ملحا قاسيا، كان ذلك عندما ذهب مع عمه إلى عطبرة، سنه لم تتجاوز السادسة عشرة، المدن الجديدة تقهر الإحساس بالخوف، بعد يومين، شعر بالغربة، والرغبة في العودة إلى بلده.

الآن يلازمه ذات الشعور، كان شعورا قويا، ممتزجا بحالة الضياع التي بدأ يحسها، تحول إلى خوف كبير من المجهول القادم في شكل غيلان خرافية، لم يكن يؤمن بالأساطير، لكن عليه الآن فقط أن يؤمن بأن الحياة مليئة بالغرائب والمعجزات، تعلق بالصلوات والدعاء، ثمة رائحة تشبه زقزقة عصافير الشتاء في عطبرة، وسط المدينة هنا يشابه وسطها هناك، سوق الكتب القديم مثله تماما مثل سوق عطبرة العتيق .

قضى النهار في البيت مع زوجة عمه، ينتظرون أذان الظهر، يعود العم بعد الظهر من السوق، يغفو كعادته في الظهيرة، ينام نومة عميقة مليئة بالأحلام السعيدة، بعد أن يسقط الكتاب من على يديه وهو مستلقي على الأريكة الخشبية.

انكفأ على بطنه، أمه تنصحه كثيرا بأن لا ينام على بطنه، لكنه ينسى، "النساء ينمن على بطونهن وليس الرجال، الرجال ينومون على ظهورهم"، حدث نفسه بأشياء كثيرة.

رأي زمان يقترب من بعيد يدنو منه، رأى أبوه يكلمه :

"سوف ترحل وستذهب إلى البلاد العجيبة، بلاد السندباد."

شغلته رائحة البخور الخارج من الغرفة، كانت زوجة عمه صبية ندية، عندما تذكر تلك الرائحة، شغل جهاز الكمبيوتر، سمعها تناديه بهمس:

"تعال."

دخل الغرفة ورائها، اشتم الرائحة العطرة ، تذكر أنه من عامين لم يشتم مثل هذه الرائحة في غربته، فكر في كتابة رسالة إلكترونية إلى عائشة .

وجد زوجة عمه ترص الكتب على المنضدة، كانت تشبه عمه، عندما تأمل فيها، وجدها ضعيفة الجسد، تبدو مثل عمود إنارة، لكنها ممتلئة بالحيوية .

فتح نافذة جديدة في الجهاز، كانت الصبية قد انتهت من رص الكتب، تغني بصوت خافض لزج أغنية شاعت في تلك الأيام تحكي عن ولد صغير جاء ضيفا على بلد وغرق في النهر.

هو لا يعرف السباحة رغم أنه نشأ بالقرب من النهر، خوفته أمه منذ الصغر من النهر، في النهر غيلان، وتماسيح وسحرة، يتذكر أقارب له غرقوا في النهر،

تسمر فيه خوف الغربة القاتل، أحس كأنه يغرق في نهر عميق، غير قادر على الخلاص، الخوف ملأ شرايينه، الدم أسوّد في منابعه ومصباته، تخيل كائنا ضخما يحدق فيه اسمه الموت، خاف الاقتراب من النهر في كل فصول العام، لكن الغربة زادت من جراحه، أدخلته في النهر العكر.

بعد أن أصلحت حال الكتب، عدلت أوضاع الفراش المزخرف بألوان متداخلة، الظهر لم يؤذن بعد، والوقت ما يزال مبكرا على حضور عمه، فتحت الدولاب، أخرجت من داخله قطعة صغيرة جديدة من البخور .

لون شاشة الكمبيوتر بلون أزرق، الصبية أغلقت الدولاب ببطء.

حرك الفارة في بطء، كانت الصبية قد اقتربت من الموقد، ظل يراقب أطياف بعيدة ترتفع وتلتحم بسقف الغرفة، ترسم زمنا ملونا بالخوف، لا يدري لماذا خفق قلبه فجأة عندما ارتمت الصبية عليه، شعر بشيء ما يخنقه..

هل خنقه الدخان؟

هل خنقته ليالي الاغتراب؟

أراد أن يكح منعته بقوة، كح، نثار العطاس ملأ الشاشة البلورية أمامه، تشكل قوس قزح على الشاشة .

استطاع أن يمسك بطرف الوسادة بصعوبة، ضغطت الصبية عليه بشدة .

سحب الفارة، ما بين فخذيه كان بين فخذيها، أحس بالحمى، دوار عظيم حاصره، فأغلق نافذة الكمبيوتر.

تداخلت كتب عمه مع نوافذ الكمبيوتر والخلفيات الملونة لها، حفظ الملف الفارغ في الجهاز باسم (عطبرة).

الكتب صارت كتابين، ثلاثة، أربعة، عشرة، مائة، تراكم جبل من الكتب، عالم من الكتب العتيقة الممتزجة برائحة البخور، أحس أنه رجل، الصبية عطست في وجهه، ثمة طرقات على الباب، قامت، قام، تنفس، تنفست، عدل حال سرواله، وجد شيئا لزجا تعلق ما بين فخذيه، لم يكن يعرف أنه قد أدرك سن البلوغ مبكرا، شيء حار تدفق بين الفخذين، ثمة نجوم بعيدة تبدو وراء النافذة الزجاجية، المدينة الساحلية نامت مبكرا، سيارات تنفض غبار الأزمنة على الطريق ، حسبها جمالا صحراوية في قافلة طويلة لأجداده العبابدة تحمل البضائع من دراو في صعيد مصر إلى الرميلة.

4

عاد بشير العبادي من إحدى رحلاته لعتامير مصر مع القافلة التي تعودت الخروج في فصل الصيف، والعودة قبل موسم المطر، يقوده حنين دفاق لمواسم الرقاد في ظل الضحى، منذ أربعة شهور لم يذق طعم النوم اللذيذ، في حين حاصرته أضغاث أحلام لزمان لم يولد بعد، في زمن لم يفلح فيه بشير في ترتيب مجريات الظروف والأحوال كما ينبغي لها أن تًرتب، يحس بالفشل في مواجهة المجهول، وقد عثر عليه أن يغير ما فطر عليه واعتاده.

اعتذر لنفسه اعتذارا مشوشا بالحلم، وهو يغالب لذة النوم في ظل الضحى، وعزا عجزه لصغر سنه، لاعناً الرحلات التجارية التي اخترعها أجداده منذ قرون بعيدة، في دروب (العتامير) المتشابكة مثل أشجار الغابات .

أزعجه الحلم، عندما تداخلت شخوص وأشياء يصعب التميز بينها، وأصابه نوع من الاكتئاب القاتل، لم يحس مثله من قبل، شعر أنه لن يتوفق في أيامه المقبلة، فالتجارة تريد الممارسة المستمرة، والصبر، والنضال بقوة وحزم، ضد التجار الجبارين الذين لا يرحمون من يقف حجر عثرة في طريقهم، كانت خبراته في النضال بالحيلة والمكر لا تزال ضعيفة، وعليه أن يمرن نفسه لسنوات طويلة قبل أن يكون تاجرا شاطرا في دروب الصحراء.

دخل البيت الطيني عند بوابة الدوم، حانيا رأسه، اكتشف أن عنقه استطال في أيام الرحلة، كان وقتذاك في مراهقته المبكرة، وارثا مهمة أبيه الذي مات في

تمشيط دروب الصحراء والتجارة، وعليه أن يواصل بكد لكي لا يقال أنه خان أبيه بعد موته .

نام في الظل على العنقريب، تلفحه نسائم أمشير، شهر الغبار الممتزج بالبرودة وألم المفاصل، يحلم بالخروج عن ذاته، أن يخلق من جديد، متمردا ضد سلطان الأزمنة، وقهر الرجال، يحاول أن ينزع عنه لباس الخوف، يعيش يعلن مشوار أيامه القادمة بقلق .

رأي أمه نائمة في الظل بعد أن فرغت من غسيل مواعين الطعام، كان بيتهم عتيقا من الطين، وكانت أمه مريم تعافر الوجع في داخلها، تشتاق لأزمنة تصرّمت عهودها، أزمنة كانت مليئة بالحب الفخم للوجود والناس، مات ذلك الحب، بلا مقدمات، انطوى، كأنه لم يكن، يعلن عن بداية لحرب جديدة ضد العالمين.

جلس بعد الظهيرة إلى جوارها، تغسل له شعره من وسخ العتامير بماء النهر، وتعبئه بشيمة الصبر والدعاء، كانت تدعو له بطول العمر والانتصار في طريق صعب، محفوف بالمزلقانات، والأيام الوعرة .

قبل أن تنقضي الظهيرة بأحزانها المدفونة في الحناجر، جلس يعمل في آلة الكمبيوتر العتيقة، ذات الشاشة البلورية، أحضرها معه من عتامير مصر، شحنها طاقة ببطارية سيارة قديمة، وأحضر معه جهاز السدلايت، ربط الكمبيوتر بالإنترنت، أراد أن يعلم التجار الذين عفا عليهم الدهر، أن التجارة،

ومنذ الأيام القادمة، سوف تسلك مسالك مبتكرة، وأن دروب الصحراء ستشهد ولادة زمن جديد،، ما بين قرى ومدن تمتد على ضفاف النهر في الصحراء.

رسم وجوها لرجال بلا هوية، عبروا في حياته، ونساء ملونات بأحلام مؤجلة، منذ آجال بعيدة، يبحثن عن رجال يأتون من وراء البحار، يغمروهن بالحب، والسلوى، وفوضى الوجود .

لوّن الشاشة البلورية بزغاريد الفرح الممتزجة بالحزن، وتعرف على الفارسة التي قالت له بأسرار التجارة والزمن الجديد، طلب الزواج منها، لكنها رفضت. اسمها شهرزاد، أبوها سندباد البحار في بلاد الفرس، تعيش على حب الحسين، وتصوم عاشوراء باكية، مغلفة بحزن أصيل، حدثها عن وجعه وآلامه، ورحلاته القاسية إلى عتامير مصر، وحدثته عن مبادراتها المبتكرة لصنع جيل جديد في إيران، يؤمن بالتغيير، وإصلاح الوجود، قال لها: "الغش في التجارة ملأ الدنيا."

حاول مغازلتها، مانعته، هربت منه وراء الشاشة البلورية، تبحث عن رفيق جديد وراء البحار، يفهمها، وتفهمه، بعد أن خلقت في ذاته نوعا من الحرارة التي لا تهدأ، والجنون، وعشق أئمة الشيعة، والمهدي المنتظر .

أعلنت له قبل هروبها في الفضاء الكوني أنها لا تحب أفريقيا المدارية، ولا ترغب في رؤيتها، تعرفت على رجال سمر في طفولتها، فخافتهم، حسبتهم من قبيلة

الجن والشياطين، اندست وراء أمها، تبكي، تأمل الشفاعة من أهل البيت، ضد جور الزمان الذي جعلها ترى الشيطان الأسود .

يتذكر من كلماتها : لم أسمع عن بلاد السودان من قبل - أبحث عن رجل شعره كشعر النساء - أنت أسود كظلام الباطل - شعرك خنافس برية، ينبت بصعوبة ولا يموت إلا بعد أن يحترق بالشيب وضراوة الأيام .

نسيها مع الأيام، مثلما نسي أخريات تعرف عليهن في ليال متباعدة، وهو يغازل برامج الكمبيوتر والإنترنت، يبحث عن طرق جديدة لتدبير تجارته، في دروب العتامير.

5

ضوء تسرب إلى عقلي قبيل فجر من أيام الغربة، أحاطني بهالة من الحزن، امتزجت بالحلم الجميل، وخاطبتني روح خفية داخلي، لم استطع مقاومتها، تحسستها في شكل رجال بيض يحملون كفنا أسودا من قماش الدمور جلسوا معي في الحجرة الصغيرة ملاذي ذات السقف المنخفض لساعات قصيرة من النهار البطيء، شعرت بالخوف منهم في البداية لكنني فرحت بعد حملوا الكفن الذي جاءوا به وذهبوا .

استقبلت صباحا جديدا، موردا بالتفاؤل والأمل، ومحمولا على رائحة مستقبل يفتح نافذته للتحولات الكبيرة، جلست وحيدا، صليت باستغراق وتأمل كبيرين، في الملكوت، عاينت صورتي في المرآة، وجدت لحيتي استطالت، وعيناي توشحتا بغيب سكنته التفاصيل المجهولة.

مشيت في الشارع في المدينة الساحلية، كانت رائحة المدن الجديدة تخنقني برطوبتها القوية وكان صوت ما يناديني من وراء الأفق، ربما كان السندباد البحري الذي سكن مجاهل المدن الساحلية في الأزمنة الغابرة يحلم برحلات في البحار البعيدة تكشف عن الجديد، ربما جاء الصوت من أعماق بلاد العتامير، ربما من هنا، من حولي، جاء يحرك فيّ رغبة مجنونة تندفع سيلا جارفا للإرادة الضعيفة، يقف ضدي وضد طموحي، يصرخ فيّ" لا .. لا ."..

في المساء، جلست وحيدا في غرفتي أكتب رسالة لعائشة على الكمبيوتر أبعث بها في الغد بالبريد الإلكتروني، استعصت الكلمات عليّ، شعرت بالإعياء والتعب والقلق والخوف، هل أخاف المستقبل؟ .

أكثر من ربع قرن مضى وأنا أردد هذا السؤال لم أعرف له جوابا منذ أن كنت في مدن العتامير وجئت إلى مدن الخرسانة المسلحة، كل شيء في حياتي ربما جاء كنوع من الصدفة بلا رغبة، بلا إرادة، حياتي مسرح من العبث المتواصل بلا نهاية، تتشابه مع آخرين وتختلف، وكنت أعزي نفسي بالقول "تظل تجربتي أنا وحدي، ليس بإمكان أحد ما أن يغامر ليعيش على طريقة الآخرين، كل يحب حياته مهما كان شكلها."

لم أعد اذكر لي أصدقاء، يقفون معي في مواجهة العبث، فالأصدقاء لم يعودوا ينابيع تغذي نهر الحياة بالمودة، أحيانا، تحاصرني فكرة الموت، أليس من الممكن أن يأت الموت، فجأة، بلا مقدمات؟ .

لأسباب مجهولة أخرى كان عليّ أن استمر في خوفي من الآخرين، أرى نفسي وحيدا، أعشق الوحدة، أحتاج إلى المزيد منها، كتبت لعائشة على شاشة بيضاء، كانت جرح طفولتي الذي لم يندمل بعد، رفضت تلوين خلفية الشاشة أو زخرفتها، أردت أن يكون اللون انعكاسا مباشرا لمبتغاي وليس حجابا عنه .

كتبت :

"أحس بالوحدة، أحتاج إلى نهار آخر أولد فيه وأعيش من جديد، أحتاج نهرا من أنهار العتامير الحزينة العكرة أغطس فيه، لأغسل حماقاتي، أعيد تركيب ذاتي أنا وحدي."

ستقول لي :

"أنت ولد لا تعرف الصبر ."

سأقول لها :

"نحن، هكذا، ولدنا في لحظة من جنون الزمان."

دفعت بالفأرة، مُحركا المؤشر على الشاشة، فكرت قليلا، نفثت دخان سيجارتي في الهواء، تصاعد الدخان على شكل تفاصيل صغيرة تُشكل ذكريات ميتة لم تعد تحتل مكانا في الذاكرة الصدئة .

حاصرني دخان السجائر في الغرفة، كنت قد أغلقت النافذة، شعرت بالرغبة في التدخين مرة أخرى.

أحسست بالملل، فتحت نافذة الغرفة .

المدينة الساحلية تعيش الليل الموحش، لا أحد يمر في الشارع المجاور للبيت، كان الجو باردا، شممت رائحة حلم بعيد يحترق وراء الأزمنة والأمكنة. رأيت أمي تقدم لي زهرة بيضاء، قطفتها من جمجمة رأسي، بعد موتي، مكتوبة بلغة الهمس، تقول لي " لا تفكر كثيرا في المستقبل ."

أغلقت النافذة الزجاجية، عدت للجلوس على الكرسي البلاستيكي، أعاين الدخان الكثيف في الغرفة، الصاعد إلى السقف بلا هوادة، حركت الفأرة أخربش بالمؤشر على الشاشة البيضاء أشكالا غير مفهومة. أغلقت البرنامج، أعدت فتحه، رميت بالخربشات في سلة المهملات، أغلقت الجهاز، دلفت إلى سريري أحاول النوم، حاصرني الأرق، عدت أتحسس بيدي الحائط، أبحث عن مفتاح الإنارة في الغرفة، عثرت عليه أخيرا، ضغطته بعنف لم أرى مبررا له غير القلق، عاد النور للغرفة، رأيت جندبا يهرب من تحت طاولة الكمبيوتر إلى الدولاب.

جلست مجددا على الكرسي البلاستيكي المتأرجح كالزمن، شغلت الجهاز، فتحت النافذة البيضاء، أشعلت سيجارة المارلبورو الأمريكية الصنع محاولا التركيز في الكتابة، ماذا أريد أن اكتب؟ ليس ثمة ما يجمع الأفكار في أناء العقل، كانت حياتي نوبة من القلق المتواصل. شعرت برغبة في التبول، فتحت باب الغرفة، دخلت الحمام، تبولت واقفا خارج المقعد اصنع أشكالا وأكتب كلمات غير مفهومة كنت مغرما بهذه العادة في طفولتي عندما كنت أخاف الجلوس فوق حفرة المرحاض، نظرت لوجهي في المرآة خلف الحوض المعلق، كأنني لست أنا.

6

من جديد، غلفني الاستياء، شعرت برغبة الانعتاق من العالم، لكن لا مفر، الحياة أصبحت حصارا متجددا يتغطى بفقاعات الأمل والطموحات الميتة وعلي المرء أن يصمد لأنه لن يستطيع أن يغير قدره .

"هل يفقد الإنسان الأمل ويغيب عنه المعنى؟"

كتبت السؤال على الشاشة في النافذة المتحركة، لكني لم أشغل نفسي بالجواب .

أبدو معتدلا أمام الآخرين وأعاني الجنون مع ذاتي، أهتز أمامها، اشعر كأنني أموت ببطء لذيذ لا أحد يعرف سره، لا أحد يدرك أنني أتغير أجرد نفسي من المعاني الجميلة التي كانت ديدني، صرت جحيما مع وجعي القاسي أعالج الوحدة بقلق أكثر ألماً .

أخيراً قاومت الحزن، جلست من جديد على الكرسي، تعب الكرسي مني، لو كان له فم لتكلم، حركت الفأرة على الشاشة، بدأت أكتب لعائشة عن حزني وخيبتي .

"ارغب في البكاء الصادق، العودة العجولة لمرمى الرأس"

أود مكاشفتها بالحقيقة الماثلة أمامي، إحساسي بالضياع واليأس والهجرة البخيلة التي لا تنتهي تفاصيلها، بدأت في الكتابة .

.."افترقنا في يوم عاصف، أعرف أنك قد قدمت الكثير لأجلي لكني كنت بخيلا، الفقراء مثلي لا بد وأن يعيشون على البخل حتى لو أنهم اغتنوا واصبحوا سادة بعد أن كانوا عبيدا، كنا نقاوم الفقر سويا نعايش أزمنة أشبه بالسراب في صحراء العتامير التي عشنا فيها حياة أقسى من قهر الأنهار العكرة وأحزانها، كيف تعيشين، هل تغيرت الأحوال " - لم أضع علامة الاستفهام - أجهل مكانها على لوحة المفاتيح، ولم أكن في حاجة لها، فحياتنا استفهامات لا تموت .-

كنت استخدم جهازا عتيقا، اشتريته بمائة دولار عند أول مجيئ إلى هنا كي أتدرب عليه، بدأت التدرب بعد أن حدثوني بأن من لا يجيد استخدام هذه الآفة لن يجد وظيفة ولن ينجح في العمل. تعلمته بسرعة صرت حريفا فيه ألاعبه وأغازله في نهارات وليالي الاغتراب القاسية.

7

عندما هاج النهر، انقطع التيار الكهربائي، البروق والرعود أغضبت الأهالي، كانت آمنة تتحسس طريقها في الظلام، بحثا عن عود ثقاب في المطبخ.

في ذلك الليل الخريفي المخيف أشعلت الشمعة بعد أن عثرت على الثقاب تعلن عن ميلاد عام جديد لرحيلي، كانت تبكي في حين سرق ضوء الشمعة خلسة دموعها يقاوم عتمة الطين في مساءات الحزن الطويلة .

كان زمنا للهروب الكبير عندما تعثرت دروب الحياة وانحدرت في مزلقاناتها في وجع كثيف، كان قدرا لم يملك الهاربون قرارا تجاهه سوى أن يستجيبون له، ينفذونه، وحسب.

خرجوا بالألوف في زمن فقدت فيه الأشياء طعمها، ازدادوا فقرا على فقرهم واكتووا بعذابات الزمن الجديد الذي ولد فجأة بلا مقدمات .

خرجوا لتحاصرهم جيوش الوحدة في اغترابهم، بدلوا الوظائف، والمذاهب والعادات بحثا عن دروب المال، لم يحلموا بالثروة الكبيرة، أصبحوا يشكون في كل ما حولهم، اكتسبوا طباع لم يعتادوا عليها، كانت الحياة أشبه بحلم عريض يعيشون بين جوانبه الأربعة فلا يميزون بينها. وبقدر ما كانوا مفعمين بالتفاؤل، والطموح الذي لا يمل، فقد تسرب ذلك الطموح في غرابيل الزمن، كان ميلادهم ورطة، ووجودهم ارتهن بالخوف الدائم من الآتي.

8

في مساء مشحون بفوضى المدن الساحلية، في صيف أخرس، تشتم فيه رائحة عرقك البذي، فتكره كونك من زمرة الآدميين، رن جرس التلفون في الحجرة الصغيرة، رفعت السماعة على غير عادتي، كنت لا أهتم في العادة بالرد على الهواتف، فالهواتف كلها مطالبات والناس في بلاد الغربة تأخذ منك ولا تعطيك. كانت الأيام تجري عل كيفها، وما كان ثمة من يقف مرة واحدة ليتحداها، يهتف ضدها بشجاعة، ما كان هناك قلب يحس بأنه سيعبأ بالأمل، كان الصراخ مستمرا : "لا .. لا ..لا". ضد من ؟. وفيما ؟. لا جواب، كل الأسئلة السهلة والصعبة تبدأ في ساعة القهر بكل الاحتمالات، لتكون إجاباتها " نعم "، شاء الناس أم أبوا. أن تبدأ مشوارا جديدا في حياتك، وتردم حفرة الماضي، يعني أن تولد من جديد، أن تغير ملامحك وتفاصيلك، التي تحبها، أن تقطع أحلامك إربا .

جاءني ذلك الصوت الذي لم أسمعه منذ سنوات، كان مألوفا لي لكني عجزت عن إدراكه .

"لم تعرفني يا مرتضى؟ ."

صمت زمن قصير، بعده برقت الذاكرة وميضا للحظة خارج الزمن، خارج إطار الحاضر. قلت :

"أنت ؟ .. أنت؟ ."

كانت جمل كثيفة قد اختزلت روحها في لحظة فجائية، لم أتوقعها، تصببت عرقا، كنت بالأمس أفكر فيه، منذ شهور وقد انقطعت رسائله عبر البريد الإلكتروني، غاب عن ساحات الدردشة، كان يدخلها باسم (بشير العبادي)، كان يحب أجداده الذين بنوا مجدا ذات يوم في الصحراء، لم يكشف عن هويته ذات يوم ولا عن موضعه في الزمان والمكان، كان له رواد ومعجبون .

رأيته قبل شهور في الحلم، أجلس معه، أكتب عنه رواية، نوع من الثرثرة، عن رجل تحول فجأة إلى ثري في صحراء العتامير، غيّر الموازين وقلبها، مارس التجارة الفضائية في الصحارى ونجح فيها و أقلق التجار التقليديين في دروب العتامير .

كنت أكتب عنه خواطر وانفعالات، لكني لم أكن أظن أنه قد أصبح يطارد المطارات ودروب الصحراء الجديدة، وأن ما كنت أكتبه في الحلم كان واقعا حدث فعلا.

كانت الصحراء الجديدة التي اكتشفها ممتدة اسمها الكون، يحط رجاله هنا وهناك، عقله الصغير مشحون بالأرقام والحياة الرقمية الجديدة.

لو قلت له كل هذه الرؤى والكلام، لن يصدقني، لكني لم أقل له شيئا، لم أحكي له عن ما أحدثه فيّ حلم البارحة، عندما عبر لعوالمي الداخلية، كان جالسا مثل سلطان يتحدى جبروت ذاته، يواجه دنيا لا أمان لها، لا فرق بين

هذا وذاك، الأصل في الأشياء كما تعلمت من مدن العتامير أن الحياة تسير في جدول واحد تجاه هدف واحد، وعلى المرء أن لا يعكر مزاجه في انتظار الحياة الأفضل .

عندما جلسنا سويا آخر الليل في فندق أمبسدور، كنت أحدثه عن جراحي في الغربة، لكنه قال لي :

"أعرف عمق جراحك، أدركه تماما."

كان موعد الطائرة في الصباح الباكر، وعليه أن يواصل رحلته إلى دبي، فرنسا، سنغافورة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى اليابان، إلى السودان.

تحاورنا في همس، قال لي :

"شعرت أخيرا بأنني أقترب من الحقيقة، أود ما كنت أطمح إليه في حياتي، طلقت عار تاريخي في الصحراء."

"العبادي .. هل من الممكن أن ينفذ الرجل من جلده؟"

"أدرك أن شجاعتك كاذبة، منذ صغرك وأنت تخاف المغامرة."

".............."

"عليك أن تواجه، تصادم، تبتكر عالما جديدا."

"لكن... الحياة مغلفة بالأكاذيب."

"عفواً.. الأكاذيب تعيش داخلك، أجزم لك أنك لم تتغير، ولم تتقدم خطوة واحدة للأمام."

"أصحاب المبادئ لا يعيشون في عالم اليوم."

"أنت محبط ومتوتر يا مرتضى"

"هل أهرب من مصيري؟"

نفثت دخان سيجارتي في هواء الصيف الحار في المدينة الساحلية أمام الفندق، ضرب الأرض بقدمه اليسرى كأنه يرفض طريقة حياتي، شعرت بأني أصبحت مجرد رجل عادي، بسيط، تأملت كلماته " العبقرية والذكاء يمنحنا لهما الله، لا نتعلمهما في المدارس والجامعات، عندما لا نقدسهما، ونرعاهما يموتان، كل شيء في عالم اليوم لا تهتم به، لا يُلقي لك بالا ."

ودعته في الصباح وهو يغادر في طريقه إلى مدن مختلفة، كان في رحلاته المتواصلة، ظننت أنه سيقودني معه إلى هناك لاشتغل معه في إحدى مكاتبه المتعددة بعد أن أصبح صاحب ثروة وجاه، قال لي وهو يودعني في المطار :

"حاول أن تجني ثمرة ميلادك ووجودك، لا تكن عالة على الحياة والناس، ما يزال في العمر بقية ."

9

في المساء جلس أكتب، كانت الكتابة عزائي الوحيد، وكان عليّ أن أفرغ انفعالاتي في مساحات بيضاء أسّودها بأشكال الحروف المقهورة المهورة بلون الدم والحزن وصديد زماني.

لم يكن مجرد لقاء وافترقا، بالفعل كان زمنا طويلا رغم قصره عشناه سويا، لا يزال يندس في خدر الذاكرة لا يغادره، كنا نختلف لكن اختلافنا كان وديا اخويا للغاية، كان كل منا يكره أن يرى الأخر غاضبا، وبالتالي كان يكره أن يعامله بردة فعل القلق والغضب الذي يحتوي الإنسان ويغير صموده لأسباب مختلفة .

أذكر يوم خروجي، كان قد ودعني يقول لي:

"أتمنى أن تعود سريعا، وأن تعوض ما كنت تبحث عنه ."

بعد الخروج كانت ثمة رسائل متبادلة، لكن الحياة تقتل كل شيء، انقطعت الاتصال بيننا، لكن القلوب ظلت كبيرة كما هي، لم يصل العتاب لمراحل الذروة .

الناس تقدر الظروف إذا ما ملكت العقل والحكمة، وأحيانا لا تفهم، ومنذ لقاؤنا في فندق أمبسدور قبل شهور، انقطع التواصل بيننا، لم يعد العبادي

مرئيا ولا مسموعا، غاب عن ساحات الحوار الرقمية والدردشة في الإنترنت، ربما كان مشغولا مع زمنه الجديد وتجارته الواسعة التي تجوب الفضاء .

ذات نهار، ومض القلب، كنت قد عدت من عملي مبكرا غير العادة، فتحت البريد الإلكتروني:

"نيومسيتش" .. " هي فروم عبادي.."

قرأت الرسالة على عجل في المرة الأولى، وقرأتها في المرة الثانية بتمهل.

10

.. "أكتب إليك وأنا عائد من بيوت الطين في مدن العتامير، حدثتني في أمبسدور عن رغبتك في الزواج العاجل من آمنة، أعرف أنها رغبة قديمة .

لقد رجعت صفر اليدين والجبين، بالفعل كنت مشغولا الشهور السابقة في رحلاتي التجارية التي انتهت بالموت السريع، أصبحت أكره وجودي، كنت أخال أن سفني رست في بر الأمان، لكن ذلك التخيل كان مستعجلا، لست خائفا على أية حال، الثروة تأت وتذهب، اشعر بقلق متواصل .

لن تكون رسالتي هذه الأخيرة، لكنني غير قادر على التكهن بما سيحدث في الغد، أردت أن أخبرك بمأساتي قبل أن يأتيك خبرها من غريب، الناس لا هم لها إلا نبش الآخرين.

صدقني أشعر بالراحة الآن، عمّا قريب سأبدا رحلة جديدة في سبيل أن أكون، أنا الآن، ربما أبدو بلا هدف، لكن صورة المستقبل لم تظلم أمامي، لن أعرف اليأس أبدا، يقولون أنهم اكتشفوا وادي من الذهب في صحراء العتامير قريبا منا، الكل ذهب هناك بحثا عن الذهب، ليجد حظه سأذهب معهم لأجد حظي. هذه مجرد مزحة.

قوافل العتامير القادمة من جنوب مصر توقفت، الدولة أصبحت تطارد السيارات في النهار والليل، والتجار صاروا يسقطون أمام رصاص الشرطة بلا

رحمة، ما أرخص دم الإنسان في هذا الوطن، يموت وهو يبحث عن لقمة العيش، والشرطة تنهب البضائع بعد أن تقتل التجار، وتبيعها في أسواق العتامير، كل شيء هنا أصبح مفزعا ومخيفا .

قالت لي عائشة أنها تشك في عودتك تعاني الظروف القاسية، غاضبة عليك تريد أن تمزق الماضي، لكن الحياة صعبت .

كنت تقول سأخرج ولن يعينني قريب على ذلك، وكان ذلك، كنت تعد لي حزما من أقاربك خارج الوطن، في الخليج ولندن وأمريكا واستراليا، لكنك كنت تصر على الخروج بمفردك، لم تكن متحمسا لعون الأقرباء، تقول لي: "الأقرباء في زماننا هم الغرباء عنا". أعرف أنك كنت واثقا من هدفك لكنك أخفقت .

سأكتب لك من مقهى العتامير في الخرطوم، وسأقص عليك فيما بعد قصة هذا المقهى الذي سأنشئه وأديره"..

11

".. كلما تذكرتك في ليالي الشتاء القاسية، عرفت أنك لا تشبه هذا المكان ولست جزءاً منه، لقد حكموا علينا بالغربة عن هواك وفجروا في داخلك لعنة لا تندمل في زمن الفجيعة، أجل ليالي الشتاء ببردها وعواصفها الترابية التي تقذف بنوافذ الخشب المهترئة في ساحات البيوت الكبيرة هي التي ذكرتني، جعلتني أتضرع لله في تلك الليالي أن تلقى بالاً لذاتك، تحاورها، أن تفكر في جزء مما قلته لك أنت، أنا، نحن لسنا غريبين حتى تكون بيننا أسرار، نحن جزء من عالم واحد قاومنا أمواجه القاهرة في زمان الدميرة، غطسنا، وخرجنا لكن درننا لم يغتسل، لأن أحزاننا كانت أكبر من كل الأيام التي حولنا، أكبر من كل الذين حاولوا أن يعرقلوا مسارنا ويجعلونا مجرد أوثان لهم يحركونها كيفما شاءوا. أتذكر يوم قلت لك يا بشير : أنت رجل يشبه شجر الحراز في صموده ضد آلام الجفاف، وزيف الصحارى، أتذكر ذلك أم تحتاج أن أعيد لك كل شريط الذكريات المتعطل ." ..

".. أعرف أنك تكره الماضي، تبغضه رغم حلاوته، تتعطش لمستقبل عريض ترى فيه أمانيك الهاربة من بين يديك دوماً، كلما حاولت ملامستها وجدتها كالماء تنزلق لا تبقى، تترك آثارا تجف بعد حين .

أنت لست من أبناء هذا الزمان الزائف، زمن العورة الكبرى والرجال الذين لا يتعففون عن جهالتهم، لن أقول كفاك بكاء، من حقك أن تبكي وأن تقول لي

بصوتك المبحوح المهذب، عندما يفقد المرء سلطان ذاته فلا يسأل عن هواه، وأدرك تماما أن هذه الحكمة هي التي تقلقك ضالتها، وانك كنت تنوي غير هذا المسار لكنك ضللت الطريق، ومن يضل الطريق عن علم، فليتحمل عقبى الطريق ومشقة السفر ...

.."مثل نهر شفاف ليس كنهر طفولتنا العكر في مدننا الصغيرة الوديعة في أرض الشمال أراك وأرى فيك صوت معدياتنا التي تمخر النهر في هدوء لا تبالي بساعة التاريخ الدائرة، ولا لون الدم القادم من الجنوب في ماء النهر العكر، أراك تتسلى بالطين تصنع منه فتاة سمراء اللون تسميها «آمنة» تمارس معها لعبة الحب، تحدثها عن ليالي الانفراج الكبير القادمة، عن أحلام جيل التسعينيات، وعن بيوت الطين التي ستصير عمارات شامخة، وعن شبكات الإنترنت والطرق التي سوف تقربنا من ذواتنا قبل أن تقربنا من العالم.

تضحك آمنة تقول لك: " يا ولد، يا مجنون، الحضارة ليست ماديات، الحضارة روح وثقافة، وانتماء "، تموت آمنة بعد أن تحطمها في وجه الريح، ويصرخ من عمق الماء العكر طفل صغير يرفع يده، يخفضها، يرفعها مرة أخرى، يخطفها صارخا: «لا.. لا...، ساعتها أسمعك تقول لي «دعه يموت».. ألسنا كلنا في لعبة الموت نحيا."..

.."عزيزي بشير هل أيقنت بأن صراعنا في سبيل أن نكتشف معنى وجودنا كان بلا هدف؟ رحلتنا في مقام أن نكون، كانت بلا جدوى؟ ترفعنا بتأفف عن الآخرين ظنا منا بأن ناصية الخطاب والذكاء ملك لنا نحن، لا غير.

لا أحب أن أجرحك أكثر مما أنت فيه، أو أقتل قلقك اللذيذ بعد رحلة البحث الدائب، أعلم بأنك الآن ربما تكون في أحسن حالاتك فهما للمغزى، وتماشيا مع الواقع دون كبرياء أو غرور. وتدرك تماما أن هذه الكلمات لو خرجت من غيري لما قبلتها، لكنها عندما تخرج مني أنا وبالذات فهي مقبولة، وواقعة في محل التفكير والسؤال."..

.. "تشطرت الأحلام وترملت الأماني، لم يمت شيء، لا، ولم تغب نجوم ليالينا التي نقود بها قوافلنا في عتامير الشمال، ولم تتكسر صنارة الصيد، ها، أعرف أنك لا تجيد فن صيد الأسماك، وعبثا كنت تحاول أن تتعلم أن تكون صيادا بسيطا مثلي، ففشلت، كأنك كنت تقرأ غيبك، أجل، وأنت تفهم ما أعنيه تماما، وتفهم كذلك أن رؤانا قاصرة عن بلوغ الآمال .

في ذلك الظهر قطعت الحبل، وقذفت به في الماء العكر، رجعت حزينا، لكنك لم تعتبر من التجربة، أنا نفسي لم أكن أدرك المغزى، لكنني فهمت الآن، أن خلاصنا في معترك الوجود، أن نناضل بثقة وطموح، وأن نغسل الخطيئة عن قلوبنا السوداء، فنحن نحمل دهرا مثقلاً بسوء النوايا، والأنانية، والغباء اللطيف."..

12

.."كان بلا شك يوما قاسيا، توقفت فيه قطارات الشمال تصفر وجها متأخرة عن ميعادها المضبوط في الماضي، قلت لي كل شيء أخطأ في زماننا، إلا نحن ، كنت مغرورا، مليئا بحمق الشباب المثقف، تلعن الأجيال التي أورثتنا القطيعة والخوف من الذات، وأرمدتنا بأحزان الاغتراب .

عطبرة آنذاك كانت عاصمة للحديد والبطش والنار، تخرج ضد الطغاة تشابه جوهانسبرج كما يقولون في كثافة عدد عمالها ودراجاتها التي تمشي بلا نفط، قلت لي :

"هذه مدن مصيرها الفناء، لأنها ولدت بلا تاريخ ."

أخذنا القطار على بطء تحت الجسر، ومن بعده فوق نهر عطبره، كانت الدرجة الثالثة في القطار بلا أضواء، إلا من ضياء النجوم البعيدة التي تحاول أن تتسلل مستعجلة من خلال نوافذ القطار الكسول، كانت رياح الشتاء العاصفة في أمشير تذكرني بأشياء غريبة لا أقدر على تجميعها في ذاكرتي، كتلة واحدة منتظمة من المعنى، لربما هي نشارات خشب الحنين الذي قطعته سنون البؤس، كنا صامتين نراقب ما بدواخلنا ونتحسس أجسادنا نريد أن نذوبها في جسد واحد في ظلام القطار بعد أن نام المسافرون، هل كنا نرتكب خطيئة ما، أم كنا نكتشف ميلادنا فجأة ، وأن حياته مجرد ورطة لا غير .

عندما نزلنا في الخرطوم، أول ما قابلنا كشك الصحف، اشترينا صحفاً ومجلات، وبعنا مستقبلنا، كنا نكتب ونقرأ بفعل غير مسبوق، كأنما ولدنا لنكون ورثة للمعرفة، لكننا ورثنا الخوف من أن نصبح أقوياء، وأن نشق طريقنا في درب العالم، فالقطارات لم تعد بأنينها القديم، والأمطار لم تعد ببرقها الذي يكشف عن خير قادم، كل شيء تكلس بالصدأ، واغترب عن فحواه، وأصبحنا مجرد أقنعة تمشي في طوابير المدن الملعونة، نبحث عن ظل لنا، فلا نجده، عن ملاذ نستكين له، فنعجز، عندما يكون عجزنا ضعفا مستمراً، وليس قوة تعلمنا ارتياد الحياة والمضي قدما للأمام، هل تراجعت الأزمنة، وصار كل شيء ينخر فيه الدود؟."..

..بيني وبينك شاطئ من الماضي عكرته الخطايا، كلما حاولت أن ألتمس لذاتي عذرا عجزت، كان قطار الشمال يحمل أفواج القادمين من الجنوب عندما صرخت في وجهي بعنف وقلت لي:

"إلى متى سنظل محاصرين بخوفنا، عاجزين عن مواجهة الأنا في دواخلنا؟."

ذلك هو يا عزيزي جرس الموت، فصدقني، وليس وراء هذا الجرس الجارف من مصير أو حلم، سنوات تفصل بين الحلم والواقع، والرغبة التي ماتت ودفنت في الحل والترحال والبحث عن مغزى، كنت تقول لي يومذاك أنني سأصنع حياتي وفق ما أهوى، وما أريد، لكنك لم تكن تدرك أن للعالم لغة أخرى، وأنه لا يعترف بالطموح، وان مقاييس الوجود موازين إلهية لا نتحكم نحن البشر فيها.

حدثتني عن آمنة تلك الفتاة القادمة من عنفوان البلاد الصحراوية، وقلت لي إنها تشابه « آمنة الطين» وكيف أنها استطاعت ان تدخل قلبك المظلم دون سائر النساء اللائي عبرن في صحراء حياتك القاحلة، كانت آمنة مجرد حلم مزيف، عمق جراحك، وإيمانك الذي بدأت تكتسبه في فوضى الوجود، في حين فقدت معنى الحرية والانتماء .

أعرف أن جرحك كبير وعميق ومؤلم، يغطي ما بين إحساسك بأن تكمل المشوار، وان تستسلم للطموح، ودائما أيها الصديق القديم اللئيم، سوف تفتقدني دون شك، كأنك تفقد عضوا من جسدك أنت في أشد الحاجة إليه، لكن ورغم هذا تمتلكني ثقة عالية لا أعرف لها سببا، من أن بداية الطريق لك قد اتضحت الآن، وأنك سوف تحقق كل ما تصبو إليه، وقد لا تصدق ذلك، لكن جرس الموت الذي رن في أذني، لا يبالي، وسوف يستمر في الرنين. ثمة أمطار في الخارج، وبروق تشق السماء، وأحس بدوار، واحتاج لجرعة ماء، أيتها المدن الحنونة، هل من زمان جديد يعيدنا إليك؟ ."..

13

تساءل أهل الرميلة، عن هذه الآلة العجيبة، وكيف تنقل العالم، وتنتقل إليه، لم يروا مثيلا لها من قبل، قتلت دهشة المذياع والتلفزيون، والصحف، أصبحوا يتجمعون في حجرته الطينية في الصباحات الباكرة، في مواسم ضنّ فيها الرزق، يشاهدون نساء عاريات، بصدور مكورة، وعيون وخاذة كالأرانب، يحسبون أنهن من حور الجنة، عجائب لم يروا مثلها من قبل، جلبت لهم دنيا من الفرح والجنون، شعروا بأن العالم أكثر اتساعا مما كانوا يتصورون، وأن أحلامهم أضيق من ثقب إبرة تغزل الخوف في زمن الانكسار..

كانت حياتهم مجردة من المعنى، يعيشون بلا هدف، يطمحون في مال وافر ينهمر عليهم من السماء، معجزة تغير أحوالهم وتبدلها، لكن زمن المعجزات ولى بعد أن عمّ الضنك البلاد محاصرا العتامير ونهرها. بعد أن لبست الشقاوة حياة الناس تحاصرهم من كل صوب بأنينها عاجزين عن مطاردتها، يظلون لأيام طويلة متواصلة، أطول من أعناقهم، بلا أمل، يحلمون، يعصرون الحلم برتقالة الحنين إلى زمن تتحول فيه العتامير إلى بلاد بعمارات شامخة، ورجال يلبسون الزي الإفرنجي، ونساء كاسيات عاريات، يقبلن رجالهن في شوارع مبلطة بالفرح والفضة، لا أحد يحفل بأحد، لا أحد يهتم بأحد، لا أحد يحمل ضغينة على أحد، الكلّ أغنياء، أوفياء في الزمن المرتقب، يعملون بجد، لا يكلون، لا يملون، أغنياء، غنى الجاه، وغنى العفة.

تعرفوا على ملامح الزمن الجديد، عبر شاشة العبادي البلورية، أطلقوا عليه (زمن الهوتميل) تيمنا بذلك الموقع الإلكتروني الذي يتيح إرسال الرسائل، واستقبالها مجانا، في لمح البصر .

صاروا يحتشدون في الحجرة الطينية، أصبحت لا تستوعبهم. بنى بشير حجرة أكبر، واكتشف تجارة رابحة، أربح من دروب الصحراء والقبائل الصاعدة والهابطة لأجداده وآبائه.

صاروا يحجزون الموعد قبل أيام، يراسلون أبنائهم في بلاد المهجر البعيدة، ويستقبلون الرسائل، أحسوا بأن العالم بدأ يضيق ويصغر، واكتشفوا أن الكون مليء بالدهشة والمفاجآت، عشقوا الجلوس وراء الآلة التي غيرت حياتهم، وكانوا كلما جلسوا يدعون للعبادي بطول العمر.

كان هناك زوار الضحى، وكان هناك زوار ما بعد الظهيرة، أما زوار الليل، فقد كانوا رجالا، زادوا نساؤهم وجعا على وجعهن، وهن يعانين من زمن اغتراب الأبناء، يعشن الفقر المدقع، كانوا يعودون لبيوتهم ما قبل الفجر، ليجربوا حيل الحب المدهشة، التي اكتسبوها من نساء ما وراء البحار، لم تعجبهم أوجه نساؤهم السوداء، ظلوا لأيام وليال يبحثون عن صبغ يلطخون به أجسادهن، لتلمع الأوجه السوداء في الظلام، فيرون أجساد حمراء، صفراء، طرية، تجلب المتعة، وتحقق لهم جدوى وجودهم، ونعناع اللقاء والارتعاش.

14

هكذا بدأ نهار قصير وولدت حياة أقصر، ثم فجأة وفي زمن آخر كانت عيون تحملق في بداوة عابري السبيل، رجال يحملون الوجع على ظهورهم، يجرون أحزانهم كالدواب، يتجولون هنا وهناك، يعودون آخر النهار للطين، طين يندس في الطين.

عندما كان حتما أن تتغير الأحوال صاروا يختبئون في أجسادهم الجديدة، يعانون غيظ السنوات، يبكون خلف الحيطان، لا أحد يسمع شكواهم المرة، أو يستجيب لأدعيتهم المغلفة بالخوف من الفقر، فالمنازل لم تعد تعطي ساكنيها الأمان، مثلما كانت البيوت تفعل من قبل.

الطين روح البيوت القديمة، الخرسانة جسد المنازل الحديثة، المدينة أصبحت عورة كبرى في زمن الهزيمة والانكسار، نساء يتجولن في الشوارع بلا حياء، تتوقف السيارات الفخمة، تحملهن، تختفي وراء المجهول في العتمة، يتركن ورائهن الصبية الصغار أولاد الشمس، يمارسون التسكع، الغوص في صناديق القمامة، بحثا عن الزاد، يحترفون الجوع والسرقة، يحلمون بالحب، لكنهم صبية، يمارسون أفعالا شنيعة داخل صناديق القمامة في الليل.

استطالت العمارات تفرغ أطفالا جياعا في الشوارع يعبئون بالونات الزمن الجديد بالهواء النتن، وكان أطفال آخرون يعبئون بالونات ذات الزمن بهواء بأمزجة خاصة، مدلل، ملون برائحة الاغتراب، والكلمات اللينة مثل معاجين

الأسنان، كانوا يبهجون رجالا بلا شوارب تعودوا الجلوس في الظل أمام الدكاكين، ينتظرون مجيء الغلمان في أول النهار وساعات العصاري، يفور الميدان بهم، فيتأمل الرجال مؤخراتهم .

يبصق الرجال على الأرض، تفتح نساء مكورات نوافذ العمارات الشاهقة قبل أن يدخل الليل يبحثن عن متعة المساء قبل أن يعود رجالهن من ليالي الاغتراب الطويلة، ويعود أطفالهن من ميدان الكرة والنوادي الليلية.

في ذلك الموسم الخريفي، أعلنت الدولة حظر التجول، كبرياء الرجال ذوبتها النساء حين أطلت رؤوس الزمن الجديد، الأيام تمضي سريعة مغلفة ببطء تحقق الآمال، رهق يحاصر الرجال في غربتهم، لا شيء يجدي، المدن قلادات ملعونة، وبالونات في الهواء، السخرية تغلف الأحاديث، والمدسوس يخرج، تفجره نوايا النساء المعلنة ضد سيف كل جبان .

انقطع التيار الكهربائي بعد دخول الخريف، وهيجان النهر، البروق والرعود أغضبت السماء والأرض.

تحسست مريم طريقها في الظلام بحثا عن عود الثقاب، دخلت المطبخ وبعد رحلة بحث عسير وجدته، أشعلت شمعة تعلن ميلاد زمن قلقلها، فمنذ أن جاءت إلى هذا السجن الخرساني لتعيش مع ولدها بعيدا عن بيوت الطين، حاصرتها الحياة بالقلق المتواصل، ظلت دائما يعاودها الحنين لمدن العتامير،

تتذكر رحلات العبادي الكبير إلى العتامير البعيدة مع القوافل، تلعن المدن الجديدة .

لم تكن شمعة جديدة قد أضيئت، كانت شمعة قديمة ثبتت فوق الطاولة الخشبية منذ الأمس، تعلق دخانها بالفراغ العريض.

بشير لا يعود إلا في آخر الليل ، ماذا يفعل؟ لم تكن تعرف، ومنذ جاءت إلى هنا، لا يدور بينهما حوار في أغلب الأحيان، تكلم الجدران الخرسانية في الشقة الصغيرة وحدها، ترى الزمن صار لحما بلا شحم، صار عظاما، وأن الوفاء صار عملة نادرة .

لطالما تعلمت من أبوه العبادي قبل أن يرحل عن العالم بأن لا تقلق، وأن لا تجلس وحيدة كي تعاني القلق، لهذا كانت تقضي الوقت مع الجيران، تثرثر، كان زمنا مليئا بالثرثرة الحلوة والمرة. لكن الطريق الآن صعب وملئ بالمتاعب، كيف يفكر ابنها؟ هل يعيش بلا هدف؟ أين وصل به المطاف في رحلته؟. كانت لا تسأله، أصبح عصبيا لا يحتمل الكلام، ولا الأسئلة .

تتذكر أول المساء في مدن العتامير، ورحلات مكة مع حليب الغنم، وخوفها اللاذع من زمان يغيَب الذكريات .

15

شاهدت المدينة القديمة تتغلف بالحزن والظلام. كان العبادي في إحدى رحلاته، وخوف جاثم على الصدر، تطل من عند الباب، لا أحد غير رجل يجلس هناك عند البوابة المطلة على الحديقة اليابسة الميتة، كل شيء كان يرسم طريقه نحو الموت .

طافت بها خواطر قديمة متداخلة في مخيلتها، هل كان الرجل الوحيد يفكر فيها وهو يدرك أنها وحيدة في منتصف الليالي عندما تخلد المدينة للنوم إلا حارس الحديقة اليابسة، كانت تراقب الوجع في ذاتها، تنتظر مقدم ريح شمالية عاصفة، تشتم رائحة زمن مخيف، قادم من وراء المكيدة والخبث، تحلم بأشياء كثيرة تغير طعم الحياة المملة والكلل المتواصل، الآن تعيش دوامة الملل من جديد، تعاني الانتظار الطويل، تعاين في الشمعة المضيئة، تنفث فيها، تقتل الضوء.

صورة حارس البوابة في العتامير شاخصة أمامها، تحدث نفسها:" الماضي لا يموت، لكننا ننسى."

ترى سماء صافية زرقاء، أحلاما ملونة، عصافير لا تعرف الهجرة، عشب أخضر في بلاد الصحارى، هل هي مريم السرور، أم أن عبث ما أصاب الحياة بالجنون؟ أم أنها امرأة من فراغ آخر مجهول من الحياة؟

أبدا، لم يكن ذهنها صافيا، انشطرت الحكايات القديمة في داخلها، اشتكت من وجع الاغتراب، تحن لليال تبدل الأسف، تزرع في قلبها الثقة التي فقدتها بعد أن ذاقت مرارة الحزن والعذاب .

تتذكر فتاة في الربع الأول من حياتها، كان يوسف حارس البوابة والحديقة في مكانه، يقلب أوجاع الزمن، كأنه كان يرى المستقبل، يرسم طريقته في الحياة بخبث ومكيدة .

انكسرت وحشتها ذات نهار عندما تعرفت على علوية جارتها في الشقة الثانية على اليمين، عرفت أنها تعيش وحيدة مثلها، كانت قد سمعت عنها من صاحب السوبر الماركت أسفل العمارة، ورأتها هناك أكثر من مرة، تشتري أغراضا، تعارفتا، وتصادقتا، رغم فارق السن الكبير.

16

علوية في العشرينات من عمرها، هاجر زوجها بعد أن أصبحت الشرطة لا تكسب مالا، كان قد أصبح شرطيا بين يوم وليلة، يحرس بوابة السينما لعشقه مشاهدة أفلام الهنود، رغم ممانعة رئيسه في العمل العريف سلمان في البداية الذي كان يريده أن يحرس مراحيض السوق، لكنه لكز ممانعته بواسطة جاءت على شكل أمر مغلف، استقبلها العريف سلمان جالسا في مكتبه البائس يحتسي قهوة منتصف النهار، جاء الأمر في مظروف لم يعنون لأحد على نصف ورقة مشوهة، بعد شهر احتسى يوسف القهوة الصباحية مع العريف في مكتبه، فسأله العريف همسا عن واسطة لتعيين ابنه شرطيا.

حدثتها عن يوسف، لم يكن صاحب مواهب في الحياة، الصبر موهبته الوحيدة، وجدته تقول إن للولد مواهب عديدة، سيكتشفها يوما ما عندما تعصره الأيام مثل برتقالة.

روت لها حكايات طويلة عن وحشتها، تبادلا أحاديث الوحشة، كانت قد وضعت منير بعد سفر يوسف بشهرين، اختارت له الاسم دون ان تستجيب لإلحاح أبيه بأن يسمى الولد البكر عبد الله، كانت تبحث عن اسم جديد .

أطل منير مثل قمر في ليلها الكالح الأسود، كانت تحمله وتدق باب الشقة، تفتح لها مريم الباب، يعالجان أحزانهما في زمن الأنهار العكرة بالفرح والأحاديث الطويلة، كانت الخرسانة تكتسي روحا وأحلاما تحيط بهما، وثمة

نجوم بعيدة ماتت منذ قرون تحوم حولهما، فتسليهما، تشعران بالزهو، ورغم فارق السن، تبدوان توأمين تحت ضوء الشموع .

شكت لها عن انقطاع رسائله البريدية والإنترنيتية، كانت تستقبل رسائله من المقهى الإلكتروني المجاور للعمارة، بعد أن أصبح سعر المكالمات لا يطاق وبعد أن حدثته بأنها ستجرب هذه الآلة الجديدة.

كانت مقاهي الإنترنت قد ملأت البلد، والنساء المطلقات واللائى فقدن رجالهن في زمن الاغتراب لا شغل لهن هذه الأيام غير التدرب على هذا الاختراع الجديد الذي أصبح موضة العصر، يقضين ساعات في المقاهي يتدربن بالدين، والمطلقات يبحث عن أزواج جدد يأتون من وراء البحار يبدلون حياتهن الكئيبة.

كان يسألها عن منير ألا تعلمه عادة السهر مثل أبيه، لأن أبيه كان يمتهن مهنة تستدعيه السهر، حدثها عن إرسال صورته بالإنترنت، فهي وسيلة تختصر الزمن، يسألها عن التفاصيل المحتملة والمملة، يعرف أنها تعشق التفاصيل، وتحب أن تعرف دقائق الأمور .

تتراجع ذاكرتها لأول يوم قضياه في فندق الواحة في الخرطوم، كانت علوية مثل نهر قديم اكتشف يوسف منابعه المجهولة، كان يعيد فيها اكتشاف أفريقيا المدارية وكأن الأوربيين لم يدخلوها ذات يوم، يتعرف في وجعها على أوجاعه

وأناته، تذكره برائحة شوارع الخرطوم يوم عرفها لأول مرة قادما من مدن العتامير.

سنوات طويلة، مرت، قبل أن يكون زواجهما أمرا واقعيا، رغم أنها ابنة عمه، لكن من يكون أبيه؟ ومن يكون عمه؟

قاوما الاختلاف وانتصرا في النهاية ضد سلطة المال التي فرقت الأهل، تزوجا في المحكمة، وبعد الزواج بقي الأمر واقعا على الأسرتين أن تقبلا به، وأن تعود البنت وزوجها ليعيشا داخل منزل الخرسانة.

ذات نهار لملمت أطراف ثوبها، دخلت بمنير للحمام، تبول منير، خرجت بخفة، كانت مريم تمصّ قصب السكر بأسنانها التي قاومت السنوات، ولم تتهشم، واصلت حكاياتها المغلفة بالحزن .

كانت كما هي، لم تصبها جراح المدن الملعونة، مكسوة بطعم كافتريا (نيوتايمز) التي تناولا فيها إفطار الصباح في أول يوم هربت للقائه خارج البيت، مزخرفة بالوعود الصادقة التي أوفت بها، لا تزال تتذكر حدائق القصر الجمهوري، وساعات جلوسهما الطويل، ينسجان المستقبل لزمان لم يتشكل بعد، يحلمان، يقو ل لها عثمان :

"الاغتراب هو الحل"

كانا يتوقعان مواجهة وواقعا مريرا بعد الزواج في ظل رفض الأسرتين، غلفا ما وراء الغيب بالحلم، حاولا مقاومة الأكاذيب المرة التي تحاصر الأحلام قبل الزواج، قال لها :

"سوف أرحل وتأتين معي، لن نحتاج لهم ."

وقالت له :

"سنجد أنفسنا في الجنة الموعودة ."

يوم منحته قبلة لأول مرة ذاك يوم لا ينسى على أية حال، كان المكان ضيقا في ممر بإحدى العمارات العتيقة في السوق، شعر بالدوار، أحس بجراح الحياة تندمل، غسلت القبلة خوفه من المستقبل لشهور، لكن الحال عاد إلى ما هو عليه عندما حاصرته الجراح مجددا رغم أنه قبلها وقبلته أكثر من مائة مرة في ذاك الصباح وهو يغادر صالة المطار في الخرطوم إلى الطائرة.

17

دخل بشير البيت عائدا من عمله، نظر إلى علوية، لم تحتمل نظراته وراء نظارة شفافة، تذكرت في شفافيتها رفض أبوها وراء نظارته الشفافة عندما رفض فكرة زواجها من يوسف ذات يوم .

كان الاحتمال عسيرا والصبر واجبا لا بد منه، الأيام القادمة أكثر عسرا، هل تورطت بسبب جنون الحب؟ وهل هذا زمن الحب أم زمن الأنهار العكرة والكراهية المرة الطعم بين الناس؟

لماذا رفضت الزواج من خالد الروسي، ذلك الشاب الأنيق. جاء مع والدها ذات نهار، جلس في هدوء لكنه سرعان ما أثار الضجيج في البيت الساكن، عبث مع الأولاد الصغار، كانت لا تحب الضجيج، تحدث بتشدق عن نفسه وإمكانياته العجيبة، ومهارته في اللغة الروسية المنقرضة، ومغامراته في روسيا ما بعد القيصرية سابقا: الروس لم ينهزموا وإنما استراحوا قليلا في أرض المعركة ليبدأون الكرة من جديد، أرادوا تجريب حيل الصمت.

يلقب بخالد الروسي، أمه روسية وأبوه سوداني، ذهب أبوه للدراسة هناك مبتعثا مع مجموعة من الشباب الاشتراكيين الجدد في الستينات، الذين كانوا يحلمون بأن يصبح الفلاح السوداني وأرباب صاحب عبّارات المحيطات والمصانع في كفة واحدة، ونسي أبوه السودان ونسي نفسه وتاريخه وتزوج هناك، لم يعد إلا بعد نهاية الحرب الباردة، وانهيار سور برلين، عاد مسلما

ملتزما متصوفا، ورفضت زوجته العودة معه، اقتلع ابنه خالد منها اقتلاعا وعاد .

كان خالد يعود إلى روسيا من عام لأخر، يعيش مع والدته أياما، ثم ينزل من جديد للخرطوم في أيام الشتاء، لم تعرف له علوية عملا، ولم تتأكد من خلال أحاديثه الكثيرة وتخميناتها عن طبيعته، هل هو كريم؟ بخيل؟ شجاع؟ مغامر؟، كان متناقض الطباع في نظرها، رفضت فكرة الزواج منه رغم إلحاح والدها.

كان عملها في التدريس مجرد نوع من التسلية قبل أن تتزوج يوسف، الآن صار واجبا لابد منه لمواجهة الحياة، العسر، الحرمان، خشية الفقر، والدها نادرا ما يزورها في الشقة التي كانت آخر شيء يمنحه لها في الحياة، تحس بأنه لم يعد يحبها، بعد أن كانت أحب الأبناء إليه، أختها الكبرى زينب، تكبرها بعام، ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية تعد دراسة الماجستير في علوم الكمبيوتر، أحيانا كانت تراودها فكرة التعليم العالي، مواصلة الدراسة، لكن الحياة زحفت عليها بلا رأفة، أقلقت حالها.

لم تعد تتصل بيوسف، باعت الجوال، ففاتورته الشهرية لا ترحم، لا طاقة لها به، منير يجب أن يتربى ويكبر دون أن يحس بأنه مختلف عن أولاد زمنه، دون أن ينقصه شيء، عليها أن تثابر، تتوقع في كل يوم اتصالا منه، خطابا، رسالة إلكترونية، ذهبت أكثر من مرة إلى المقهى لكنها كانت لا تجد شيئا في

بريدها الإلكتروني ثم انقطعت عن الذهاب لمقهى الإنترنت بعد فترة، فليس لديها ما تصرفه على ساعات الإنترنت المكلفة.

في زياراتها المتواصلة وجلوسها الطويل مع مريم السرور نشأت علاقة خفية بينهما وبين بشير، اكتشفت أن وراء نظارته الشفافة رجلا مختلفا عن أبيها، دخلا في حوارات مطولة، وجدته مختلفا عن يوسف، يفهم في الحياة والوجود، وجدوى الإنسان، سألت نفسها من جديد، هل سيورطها الحب الأعمى؟

لم يستمر سؤالها طويلا ، فبعد شهر وفي الظهيرة دخلت مقهى العتامير معه، فتحت الهوتميل، لمعت عيناها، أحست بالفرح وطارت من الجنون، زغردت دون أن تتحكم في مشاعرها، أحست بالخلاص من السجن بعد أن قرأت العبارة في الرسالة الإلكترونية:

"علوية .. أنت طالق ثلاثة ."

لم تفكر في الأسباب، هل كان يهرب منها بعد أن حصل على الوظيفة، هل كان غير قادر على أن يواجهها بعجزه؟

18

تلفن بشير والد علوية، تسارعت الأشياء بما لم يكن في الحسبان، جلس في اليوم الثاني معه في الحديقة، في منزل من ثلاثة طوابق خرسانية فخمة، كانت النظارات الشفافة تلمع في الظلام، بفعل الضوء المتناثر، وجده رجلا لطيفا، يمتلئ عبقرية، أكتشف رجلا مثله يفهم في لغة الديجتل، والفضاء الرقمي الكوني.

حدثه سيف الدين عن تجارته الواسعة وعلاقته الكبيرة مع الدولة، ومع العالم أجمع، مضارباته في البورصات العالمية، وسفره المتواصل في البلاد، في الغد سوف يسافر لجنيف، وبعدها إلى نيويورك..

حرك الرجل نظارته وعدل حال عمته العصرية الكبيرة الحجم، وضعها على الطاولة، رشف القهوة وتنفث بعمق، دخن سجائر البينسون اللندنية، قدم له سيجارة، دخنها على عجل مع القهوة، أعجب بذكائه، لم يجد بشير بدا من أن يحكي له عن رحلاته القديمة في الصحراء وتجاربه الفاشلة مع التجارة ثم استقراره أخيرا في الخرطوم، كانت قصة طويلة من الألم استوعبها سيف الدين تماما .

قبل أن يودعه فاتحه في الموضوع، لم يتوقع أن يكون جوابه عجولا، بالموافقة .

بعد أيام فرغ من ترتيب الشقة الجديدة التي قدمها له سيف الدين، كانت علوية منسجمة مع مريم، ازدادتا حديثا مغلفا برائحة الزمن القادم. وفي منتصف يناير 2002 م تزوجا بطريقة بدت درامية، رغم أنها كانت واقعية تماما، انطلقا عبر الطريق الصحراوي إلى منطقة البجراوية حيث الأهرامات القديمة للمرويين، أضاءت السماء بالكاشفات الضوئية، وعلقت بالونات كبيرة الحجم كتبت عليها عبارات الترحيب بالضيوف، كانوا رجالا من شتى الجنسيات من الألمان والبريطانيين والأمريكان.

في البداية أعتقد أن فكرة والدها مجرد مزحة، لكنها صارت واقعا، وكان الضيوف الأجانب سواح، جاءوا ليتعرفوا على الآثار القديمة في المنطقة الواقعة على ضفاف النهر، ولأيام عملت مكاتب سيف الدين في بلاد العالم المختلفة، اشتعلت الرسائل الإلكترونية، تطايرت هنا وهناك، تتحدث عن عرس ضخم في الصحراء، على السائح أن يدفع ما يعادل 3000 دولار أمريكي ليشاهد عرسا ليليا بجوار الأهرامات القديمة.

كان ثمة رجال محاطون بنساء يرقصون في عمق الصحراء وسط الأهرامات، يحتسون (العرقي) السوداني الأصيل، ويتمايلون، ولم يكتف سيف الدين بأن يكسب أموالا من السياحة، كان أن اتفق مع شركة ضخمة للبث الفضائي لنقل العرس عبر الشاشات البلورية والقنوات الفضائية لبلدان العالم، كان إيقاع الحياة سريعا، لم يكن ثمة أمر يقبل أن يكون سرا.

بعد أن عادا من البجراوية، كان يتوقع مبادرة عاجلة من الرجل، منصبا، وظيفة محترمة في إحدى الشركات الكثيرة، مدير على الأقل، لكن ذلك تأخر. كان يزورهم في الأسبوع مرة واحدة، يحكي عن مغامرات في الأسبوع المنصرم، والاتفاقيات المبرمة هنا وهناك.

19

هأناذا يا أبي أعود إليك مع الصيف الحار كي تقول كلمتك الأخيرة في الدنيا وترحل عنها غير أبه بما فيها. هي دار لا قرار لها كما حدثتني وأنا طفل لم يبلغ الحلم بعد، وقتذاك لم أكن أعرف حجم مقالك، ولا جراح الحياة وقسوتها. لكني كبرت. كان قدرا لابد منه أن أكبر وأن أحلم كما يحلم الناس. حلمت بأشياء كثيرة بعضها تحقق وبعضها ضاع وانطوى في غياهب الزمان والمكان .

كانت عودتي ليل رحيلك عن الدنيا الذي لم أحضره، كنت وقتها في المطار أرتب أشيائي وكنت أنت تموت في هذه اللحظات القاسية، في ليل بارد من شهر أمشير بغباره الكثيف في مدن الشمال الممتدة على ضفاف النهر مثل قبور قديمة، كأنها ماتت هذه المدن، وإن كان قليل منها لا يزال يقاوم البقاء.

لم أعد بالقطار مثلما سافرت به أول مرة وأنا أغادر البلد، كانت عودتي بالبص البري بعد أن أنشأت الدولة طريقا معبدا يربط العاصمة ببلدنا استغرق العمل فيه عشر سنوات، وكان أهلنا يحلمون أن يغير هذا الطريق من بؤس مدنهم لكنه كان وبالا عليهم أخذ منهم أكثر مما أعطاهم، فقد زادت الهجرة نحو الجنوب إلى الخرطوم.

جلست عند قبرك بعد يومين من رحيلك ابكي حالي ووحدتي في العالم، أرى الدنيا ظلاما لا نهاية له، أكره نفسي في هذه اللحظة بالذات كراهية من قتل العالم وبقي وحده ينتظر أن ينصب إلها لعالم بلا بشر، ماذا ستجدي ألوهيتي

ومن سيصلي لي ؟ لكني لم أيأس ظللت أنتظر الله أن يخلق عبادا يعبدوني، أشقياء مثلي، مغلفين بالحزن والحياء لا حيلة لهم ولا ذكاء ينفعهم بعد ضلوا الطريق.

في ذلك اليوم الذي غاب فيه القمر كان نورك القادم من سراديب قلبي يضمني إليه، ويناديني بأن أتحرك، أعاند الحياة التي تعاندني، وفجأة كنت أسأل روحي بعد أن انتهيت من الدعاء عند حافة القبر :

"ما الذي تريده من الدنيا أيها العجوز؟ ."

لكني تذكرت وبمقياس الناس أنني ما زلت في ريعان الشباب، وأمامي عمر طويل سأقضيه في ترويض أحلامي، عسى أن أحقق شيئا مما تبقى منها، أو مما سيولد في الغد، فقد كان لي صندوق سري في رأسي استخرج منه كل يوم حلما جديدا.

فتحت الصندوق هذه المرة بحذر لأجده قد فرغ تماما، وقرأت عبارة كتبت على ورقة صغيرة بخط مشوه كأنه خطي " لا تحلم ."

كانت الدنيا كأنها ترسم آخر أيامها في الكون، ستموت بعد قليل، وسأرحل عنها كرحيل أبي، ولكن ماذا سأترك فيها، وسألت نفسي : " وماذا ترك أبي؟". استدركت أنه ترك شيئا عظيما هو أنا واستدركت مرة أخرى أسأل : " وأي عظمة انسبها لذات موّجعة لا حول لها ولا قوة."

20

أتذكر يوم رسمت لي ذات ظهر، بعد أن عدت من عملك في المستشفى عصفورة على الورق، تسألني أن أحاكي رسمها ففشلت، فكان أن قصفت بالأوراق وراء النافذة واستلقيت على السرير الخشبي أعض أصابع الندم.

نسي أبي أن الابن ليس بالضرورة صورة لوالده في الحياة، كان يعرف هذه الحكمة، وعندما واجهته بعدم رغبتي في الرسم، زادت قسوته عليّ ولم أكن أعرف مبررا لتلك القسوة المبكرة في حياتي.

كان قد نام نومة القيلولة يعالج القهر في داخله بعد أن فشل في تعليمه، منذ سنوات بعيدة طرده مدير المدرسة منها، قال له :

"أنت فاشل لا تعرف إلا رسم الوجوه والعصافير"

بعد رحيلي، كان ينتظر أن يتحقق الحلم الذي طالما أنتظره فالآباء البؤساء يحلمون بأن يغير الأبناء واقعهم، حتى ولو كانت علاقتهم بأبنائهم هشة.

يذهب لمكتب البريد كل يوم فيقول له الموظف :

"لا توجد رسالة لك .. تعال في الأسبوع القادم .. لربما"

وقبل أن يكمل الموظف كلماته يذهب ليعود في اليوم التالي يحلم بالرسالة القادمة من هناك.

يحمل خطواته وهو يلعن سنوات الاغتراب وقسوة الرجال، ونسى أنه كيفما يكون الأب يكون الابن، وفي ذات يوم عثرت قدماه أمام مبنى البريد فتساقطت منه أشياء الحقيبة التي تعود على حملها إلى المستشفى فوقعت الحقن والكمامات والقطن الأبيض ورسومات لأجنة مشوهة باللون الرمادي على الأرض، وحملت أعاصير الشمال بعضا منها تعبث به، استطاع أن يجمع البعض لكن كثير من أشياء الحقيبة ذهب مع الريح، فتركها أبي مراقبا خطواته البطيئة تجاه المستشفى.

سمع صوتا ما ينبعث من مكان خفي اتجه نحو مصدر الصوت متحسسا المكان في هدوء، كانت نافورة ماء أندلق ماؤها في الشارع حتى علا الرصيف، أزاح الماء بكفة يده، ثمة حفرة عميقة أطل فيها، أحس برعشة في جسده لم يحس بمثلها منذ أيام بعيدة، كان ثمة حزن يحيط بالسماوات، ارتفع الصوت الرقيق، أحس بمنقار عصفور صغير يقبض إبهام يده، جر الإبهام إلى أعلى، خرج العصفور من الحفرة يرتعش من البرد والأعاصير الترابية، كان قطار الشمال يصفر في المحطة معلنا عن قدومه من الجنوب.

ضم العصفور إلى صدره أحس بطعم حنان دافق وأنه أخطأ كثيرا في حق ابنه الكبير الذي لم يكن إلا سوى ولد ضعيف مسكين مثل هذه العصافير، يحتاج لأبوة صادقة، عندها أحس بعودة زمان كاد أن يفقده تماما، في تلك اللحظات كنت قد وصلت إلى الخرطوم، وكان أبي يفكر في عودتي، في حين كان الموت يرتب عربته لحمله إلى عالم الأبدية.

21

سنوات طويلة مرت كأنما هي حالة موت عاشها الفرد، فقد فيها الإحساس بالأشياء وأصبح يعاني من حصار الخوف من المجهول والآخرين.

"لماذا ولدنا في عصر تصرّمت فيه العهود؟ وتحول المستقبل إلى مجرد حلم ننتظره لا يتحقق ميلاده المرتقب"

كنت أسأل نفسي عاجزا عن الجواب.

تغيرت معالم المدينة القديمة ورائحة الزمن العتيق، اختفت المقبرة القائمة في وسط الرميلة، قام مكانها سوق جديد للقادمين من الجنوب. فقط محطة القطار على عهدها القديم منذ بناها كتشنر، لكن قطاراتها لم تعد تلتزم بالمواعيد الدقيقة التي تضبط عليها الساعات، كل شيء تغير ولم يعد للوقت قيمة كبيرة في حياة الناس لأن الحياة أصبحت بلا مواقيت، كان الحزن قد أحاط بالبيوت والقلوب وتراجعت النوايا الطيبة.

كان أول الشتاء قاسيا على كل الأشياء، أن يلفح البرد رجلا مثلي ضعيف البنية أمرا عاديا بعد عشر سنوات في رحلة مجهولة انتهت بالنهايات المرة في بلاد الاغتراب.

كانت عصافير الشتاء التي هجرت المدينة قد عادت من جديد لتكتسب عادات غير مألوفة لها من قبل رحيلي، أحس بالوحدة والرغبة في العودة إلى الماضي،

وظللت لأيام وحدي لا أرغب في أن أرى أحدا، أعيش مع أمي وأختي في بيت واسع، تقوم فيه غرفتان وحمام وحوش كبير وتفوح فيه ليلا رائحة الذكريات وقصص الجسر القائم بين الماضي والمستقبل عابرا لنهر الحاضر.

مثلي لا يعرف في الحياة دهشة إلا ويجربها ليعبر بها إلى الوراء بلا حزن، وشتاء هذا العام بدل المألوفات وجعلني أعض أصابع الندم وألوم الماضي المحفوف بذكريات الحنين إلى بلاد مجهولة جاء منها جدي قبل سنوات بعيدة جدا.

ما زلت أتذكر يوم وقف القطار ذات ليلة وحملني إلى العاصمة ومنها إلى البلاد العجيبة، في ذاك اليوم وقع رجل صريعا تحت عجلات القطار، رأيت الموت بأم عيني وأنا ارحل إلى هناك، لا شيء غير الموت يجعل العالم يكتسي بلون الحزن والخوف والانتحار البطيء. أمام المشهد عرفت أن قطار الحياة سيدهسني كهذا الرجل المسكين ذات يوم، لكن تفاؤلي وقتذاك كان أكبر، لكن الحياة حاصرتني بشتى ألوان القسوة والعذاب، ففقدت طموحي وأحلامي وثقتي المفرطة في ذاتي ونجاحي في أيام الدراسة الأولى عندما كان أقراني في الحي يحسدونني على ذكائي.

أحسست بطعم جديد لكل شيء من حولي، وخيل لي أنني أشتم رائحة نفاذة لزمن جديد تسري في الأحياء والجمادات، تحرك فيها نوعاً من مصارحة الواقع حتى لتكاد تمزق أرواحها وتخلقها بريئة، حرة، ممتلئة بالأمل وحب الحياة، بعد أن تعيدها إلى مركب الوجود.

هل تغيرت الأشياء حقيقة في بلدي؟ سألت نفسي هذا السؤال وأنا أعاين وجهي المهتز في ماء النهر، كنت أرتجف، وأشهق بصوت عالٍ كأنه زئير. كان صعب عليّ أن أقيد مشاعري بعد أن تلونت بخوف امتزج بحزن شديد لا يبارحني.

"هل تستحق منا الدنيا كل هذا التعب وضيق الخلق؟"

كانت الأسئلة الحائرة تواجهني بعاري وفشلي، ولم أجد بُدّاً من البكاء على أبي الذي رحل عن العالم، دون أن أودعه، كنت في طريقي إليه، وكان يموت دون أن يحتضر، رأيته أمامي يملأ مساحة الأفق الممتد على النهر، يضمني إلى صدره بشدة، يقول لي:

"كفاك بكاءً.. فبكاؤك لن يجدي.. ولن تقدر على أن تغير ما كان"

نعم، ليس بالمستطاع وبعد هذه السنوات أن أغير واقع حياتي، كان قدراً لابد منه، أن أغترب وأعود صفر اليدين.

22

فجر موشى بالأحلام الميتة اكتشفت فجأة أنني حقيقة في مرتع طفولتي، الذي أحن إليه، لم أصدق عودتي، ومع الاكتشاف كنت مسكونا بأنين قاس يواجه وحدتي في حذر .

توقف البص بي في غير موعده في عصر معبأ بالحنين، حملتني قدماي على عجل في مهب الضياء، أفكر في خلع دماغي مثل ضرس لأطحن الكلام طحينا، لا بأس أن يحج السلاطين وأن أحلم بطعم العيش الحلال، فجأة صار كل شيء عسيرا عندما استشرى الظالمون وطاولوا البنيان .

كانت الشمس تدلق عفونتها في وجع القلوب والمارقون يتأففون ويتقاعسون ويتناحرون، تُعبد التماثيل من جديد، وكان الرجال آلهة من ثلج يذوبون في مقدم الصيف أقذر من تلكؤ النساء في طلب الحب من رجال مثقوبي القلوب في عنت الزمان.

نعم، الرجال الأوفياء ذهبوا في مهب الرياح، قنبلة شرذمتهم مرة واحدة قبل ملء البطون وصار الغباء أمة من جيوش الهزيمة، وصارت الأجنة في أرحام أمهاتها جريمة يعاقب عليها القانون حين صارت الأحلام لوزة قطن تبحث عن من يغزلها وغاب الضياء في بلاد الجنون، تغيرت الأشياء فالناس أصبحوا مواعين للبكاء والحنين، يشتهون الإياب بعد أن طال غيابهم، لكن إلى أين يعودون؟ .. فقد مات كل شيء.

أسأل نفسي : " من لك في وحدتك القاسية .. لا شيء يؤنسك، لا روح تغسل عنك الحنين حين تواجه الأرض بارتهان وراء ارتهان في دروب وعرة طويلة .. كل ابن أنثى ومهما تطاول فهو نقطة من منى."

كان أن صافحتني التوابيت الراحلة بي على عرش من ضلوا سبيلهم نحو الهدف ينادون الفراغ وكنت أناديهم : " أحتاجكم اليوم قبل الغد، قبل أن تفتح الشمس بوابة للهروب الكبير ويستحكم الغباء في عالمنا إلى الأبد ."

وجدت أوراقي القديمة تأوهت، وشعرت أن الأشياء تغيرت فعلا لا كما كنت أعتقد وأتوقع، لقد غسلت السنوات الأمكنة والأزمنة والرجال ونشرت غسيل الرجال في حبالها القذرة، كنت أقلب بطون الأوراق المهترئة أقرأ:

"وحيد أنا

أقلب في حسرتي من جديد

بعد أن جف مداد الحياة

بعد أن رحل العارفون

وتبقى الجبناء.."

كنت وحدي أبحث عن زمان جديد، فالزمانات ماتت لتصبح توابيت جور، حتى الشموس التي كنا نحبها وتمنحنا الدفء في الشتاء أصبحت تظلل

أشجارها الغفلات في مهب الغباء المستحكم في كل شيء . وكان الضياء قد رحل يشترى الناس عبيدا للظلمات والظلم، كأنه يقول لهم:

"لا تقولوا سوف نأتِ من جديد لا تقولوا سوف تنفرج هوتنا ..فالمسامات أغلقت تماما ."

أن تعود مثقوبا بذاكرة صدئة وتفقد آمالك بعد رحلة طويلة ذلك حزن كبير وهذا ما حدث معي وجعلني أحس بالضياع، وأعيش الفشل ، تلك نهاية صعبة، لكن لا بأس أن أبقى على الأحلام لا أقتلها، سوف أربيها مثل فئران صغيرة في مدن القطط، يوما ما سوف تنقشع سحائب الحزن وتندحر جيوش القطط.

تذكرت عائشة التي زاحمت وجودي ذات يوم وكانت تنتظرني على أمل كبير أيام دراستي في الجامعة في الخرطوم، لكنني سرعان ما نسيتها ولم أسأل عنها، رحت أبحث عن صديقي القديم بشير العبادي علّي أجده في الأمكنة التي ألفناها التي كنا نرتادها سويا، لكنني لم أجد أحدا فقد تغيرت معالم الرميلة فالشوارع غسلها حزن دافق والبيوت تراجعت عن اكتناز الأطفال وأصبحت خواء وكنت أسال :

"أين رحل الناس؟"

كانوا يقولون لي :

"لقد أصبحت مدن الشمال طاردة ، لم يعد أحد هنا ولا هناك."

كان الزمن الجديد كان يسرق الجميع سفرا نحو الجنوب إلى الخرطوم من الصحراء القاسية على ضفاف النهر، يبحثون عن فتح لحياتهم القاسية، إلا أن أغلب الناس كانوا يهاجرون إلى بلاد الاغتراب خارج الوطن، إلى أمريكا وأوربا وأستراليا والخليج العربي، وكان كل شيء يحلم بأن يطير بعيدا بعد أن صعبت الحياة وأصبح لون الخطايا يغطي شوارع المدن القديمة الميتة.

23

دخلت المكتبة القديمة وجدتها بلا بوابة، كان سقف الصالة الكبيرة قد انهار على الأرض والعناكب نسجت بيوتها وأحلامها في كل مكان وكانت كلاب صغيرة لا تفتر عن النباح في عز الظهر تخرج من بين أرفف الكتب ساعرة، وحين رأتني الكلاب طاردتني، فقلت لها :

"أنا ابن المكان "

لكنها لم تستجب لي وكانت لا تعرف ودا، فقد نست الكلاب الود، حين صار حتما على كل شيء أن يتغير.

خرجت من المكتبة وأخذت طريقي تجاه السوق القديم وجدت عمران العجوز جالسا في مكانه أمام قهوته يبيع يانصيب الزمن المر بدلا من أن يبيع القهوة والشاي لزبائنه الذين مات أغلبهم أو هاجروا. أراد أن يسألني عن رحلتي العاثرة، لكن جراحي كانت أكبر فكذبت عليه :

"أنا لم أعد نهائيا للبلد، لقد جئت في إجازة وسأعود.."

"وماذا تعمل هناك؟"

"أعمل أستاذا في الجامعة"

بالطبع كنت أكذب عليه..

كان يرفض رحيل آمنة، لكنها رحلت ذات مساء، مثل غيرها من بنات الرميلة تاركة أبيها يبحث عن رزقه وسط البلاد الفارغة التي رحلت عصافيرها الشتوية بعد أن كانت تزقزق ونطاردها في أيام طفولتنا في ساحة السوق أمام القهوة.

رحيل آمنة، لم يكن البداية ولا النهاية، المئات منهن رحلن، بلا رجال، تشتتن في بلاد الدنيا، نسين الآباء والأمهات، يبحثن عن الشهرة والجاه، يدخن بشراهة، يحتسين الفودكا، يراقبن ميلاد زمنهن الجديد.

خلت أن عمران لن يتذكرني أو سيحاول أن يتهرب من السلام عليّ، لكنه نسى ما كان ذات يوم وسلم عليّ بقوة حين ضماني إلى صدره، كانت ذاكرة الرجل قوية لا تخطئ أبدا.

صمت لحظات أتذكر آمنة ونحن نمشى سويا بين قاعات الجامعة مع بشير، يحدثها عن زمن سيولد وراء الغيب، تشعل سيجارتها في ركن قصي، حتى لا يراها القوالون، يضم صدره لصدرها في الليالي مكسورة الضياء... تقول له:

"لابد أن نغسل الحزن عن قلوبنا"

"نولد من جديد"

"التقاليد، عار يجب أن نمزقها"

ضحكت في دواخلي عندما تحدث عمران عن التقاليد، أتذكر حكايات بشير المسائية لي، كل يوم، بعد أن يودع آمنة إلى رصيف منامها ويعود ليحكي.

كنت بالطبع غير قادر على المواجهة، فالناس تفكر في أشياء وتقول أشياء مختلفة، هذه عاداتهم يغطون السماء بالريش، وكان ريش زماننا الجديد مزخرفا بشتى ألوان الحب المبتذل الكاذب والقهر والجنون.

وضع صبي المحل القهوة أمامي رشفتها بصوت عال، تعمدت هذا الشيء كنوع من التمرد ومعاندة الواقع والمواجهة الصامتة وأحسست في طعمها فجيعة كبيرة وأن في قلب الفنجان عيون تراقبني حتى شعرت بالخوف، ارتجفت، شعر الرجل بتغير حالي وارتجافي وخوفي فهدأ من أمري، كأنه يسمع ما أفكر فيه:

"أعرف فيما تفكر يا ولدي، لا تحزن كل شيء مقدر . "

لم استطع أن أتحمل الجلوس بعدها طويلا في المكان، رشفت القهوة سريعا، استأذنت:

"سأذهب، تنتظرني أشياء كثيرة"

قلت من غير ما أدب ثم خفضت رأسي كالديك المهزوم، شعر الرجل بأنني في حالة نفسية سيئة فضمني إلى صدره :

"تصحبك السلامة .. لا تفكر في الماضي كثيرا وأزرع أحلامك للمستقبل .. أعرف أن جرحك كبير .. نحن لسنا مثلكم مثل جيلكم الملطخ بالوجع .. لقد عشنا ورأينا وكبرنا ببطء.. وأنتم لم تعيشوا طعم الحياة .. ولكن لا تيئس عسى أن تتغير الأحوال يا ابني .. سبحان الله كل يوم هو في شأن. "

24

عدت إلى البيت، كانت أمي تغسل أواني الطعام، تنتظر عودة الزوج المغترب، وأختي مكة جالسة تعصر برتقالة الوقت الفاسدة، لقد وعدها المحافظ بوظيفة قبل سنوات بعيدة، لكن ذلك لم يتحقق، فقد تغير المحافظون الواحد تلو الآخر دون أن يكون هناك جديدا لأمي، وموت أبي تسربل في الرمال وانطوى، كان حصار أمي للشرطة والقضاة - كما روت لي - جزء من الهزيمة الكبيرة التي كانت تعيشها في دراما الحياة، الكل يقول لها:

"لا تسألينا .. هذا الأمر من شؤون الدولة."

كانت ترد عليهم :

"ومن هي الدولة غيركم .. أين هذه الدولة لو لم تكن أنتم؟"

لكن رجال الشرطة والقضاء كانوا يمضغون اللبان ويدخنون بشراهة ويتحدثون ويقولون من على مقاعدهم المتكلسة بالوجع :

"يا أرملة لا تخربي عقولنا ارحمينا .. قلنا لك نحن لسنا الدولة .. نحن ننفذ الأوامر فحسب هل فهمت.."

بعد عودتي، مضت الأيام عجولة، لا ترضى.. كنت أعالج الوجع بالجلوس الطويل مع ذاتي، كنت أغازل الماضي وحيدا، وأكره حاضري، ماتت أحلامي

القديمة، البلد تغيرت، امتلأت بالخوف من المجهول..كان لابد أن أفكر في فعل أمر ما يكون مثمرا لي ولذاتي المعذبة.

ذات يوم قررت الرحيل إلى الخرطوم أبحث عن عمل هناك بدلا من جلوسي هنا بلا فائدة، فقد انكسرت دروب الحياة هنا، وادي الذهب سورته الدولة، ومنعت الناس من دخوله، وتجارة القوافل في العتامير، طاردتها الشرطة..

25

كانت لعبة القدر والمصير تطرز ثوباً ملوناً بالمجهول، مضى القطار جنوبا يسابق المنازل الطينية في رحلة بدأت عندها الحياة تكتسي بالشقاء والحزن والحنين الدائم إلى الأهل والديار.

يوم أن توقف القطار في الخرطوم كان فجرا شتويا لم أنسى تفاصيله إلى الآن، تخيلت أن خالي سوف يكون أول المستقبلين لي في المحطة، كما كنا نستقبله بحفاوة ساعة يحل به القطار في مدينتا في مواسم الأعياد، شعرت بالخوف وضيق النفس، وأنا أري أمامي جمهوراً من الناس مختلفين في الأشكال والألوان والزي، جلست على أحد مقاعد المحطة، شعرت بالجوع يهزم جسدي الضئيل أمام البرد القارس، كلما رأيت رجلا متقدما نحوي ظننته خالي .

انتصف النهار، فرغت المحطة من الركاب، القطار اتجه إلى الشمال عائدا، بقيت جالسا في مكاني لا أعرف إلى أين أذهب، لم يكن معي نقود كي أشترى طعاماً أقاوم به الجوع.

كانت أمي قد قال لي وهي تودعني:

"لا تخف، خالك سيكون في انتظارك."

يبدو أن الفقر كان قدراً لا مفر منه يحاصر ماضي أسرتي وحاضري ومستقبلي، عشت فقيرا وسأموت فقيرا مثل أبي، وفي مستقبل حياتي كان

الفقر قد شرد من حولي من كنت أخالهم أصدقاء استعين بهم في وقت المحن، كانت الكارثة في حياتي تجلب ورائها كارثة أخرى، والزمن يجري مثل نهر متدفق، ولكنه من حين لأخر يدخل في برك راكدة ويتوقف.

دنت الشمس نحو المغيب، كانت شمسا مختلفة لم يلون مغربها شفق أحمر، فأنوار المحطة والمدينة كانت تحاصر السماء، شعرت لأول مرة في حياتي أنني بلا مأوي، بلا وطن، كنت أخال أن أحد المارة سوف يتوقف ليسألني "ما لك تجلس حائرا ؟ " لكن ذلك لم يحدث أبداً، كان الناس يذهبون ويجيئون، السيارات تهبط من الجسر المجاور للمحطة وترتفع إليه، المحطة تمتلئ مرة أخرى بالركاب وتفرغ، حاصرني الألم والشعور بالوحدة.

عندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء في مسجد المحطة كان الجوع قد هزمني تماماً، واليأس قد صار ملكا تربع على عرش قلبي الحزين. شعرت بقسوة ومرارة وكرهت وجودي، وبدأت أفكر بصوت عالٍ غير حافل بمن هم حولي، لم يكن أحد يهتم بمن حوله، ارتفع صوتي صرخت بقوة دون أن أتمالك نفسي، كنت قد سقطت على الأرض مغمى عليّ من الجوع والخوف والبرد، وكانت رحلة جديدة في حياتي قد بدأت في ذلك اليوم، في حياة لا تنتهي فيها رحلة إلا وتبدأ أخرى أقسى من سابقتها.

26

في البيت يلجأ بشير لمفكرته يقلبها من جديد، يشعر بأن ثمة نقاط مهمة فيها، سوف تساعده في تعديل مسارات حياته المتشابكة، لاسيما بعد الزواج، أحيانا يتصفح الإنترنت يبحث عن مواقع قديمة، أصدقاء وصديقات عبروا بحياته ذات يوم، يسجل نقاطا من خلال مطالعاته، يعرف أنها ستفيده بشكل ما، قد تكون رؤوس أفكار لتجارة رابحة، يشعر بالخجل أن يواجه سيف الدين بالأمر، كان زواجه أشبه بورطة، ظل ينتظر أياما، مضى شهر ونصف الشهر على الزواج، دون أن يكون هناك جديدا، وكانت أرباح المقهى تتضاءل يوما بعد يوم، فالناس لم يعودوا يحفلون بمقاهي الإنترنت، بعد أن أصبح في كل بيت جهاز كمبيوتر.

الوقت ما بعد الظهيرة، والساعة تقترب من موعد المغرب، ستغيب الشمس بعد دقائق، حاصره خدر في يده اليسرى في جسد هزيل لا يقاوم الأمراض، كان يدخن بشراهة ما بعد الزواج، أغلق المفكرة، أغلق نوافذ الشقة، دائما ما يرغب في تجديد الهواء، علوية ومريم انشغلتا بمنير، بعد أن اشتريتا له قمصان جديدة. حاصره دخان السجائر بعد أن أغلق النوافذ، شعر بالرغبة في التدخين مرة أخرى، رأى أمه نائمة، شعرها سارح في الهواء، تنام بنفس طريقة نومها في الغرفة الوحيدة في المنزل القديم، كان يجلس إلى جوار الكمبيوتر وكانت تبتسم له بين النوم واليقظة.

ابتسمت له، حاول أن يغلق النافذة التي تحولت إلى نافذة حديدية منذ سنوات، وجدها تلك النافذة المتهالكة التي ترعرع معها، والمصنوعة من الخشب والتي تنهار كلما دفعها لأعلى. هل كان يحلم؟. أم أن الحمى حاصرته؟!.. لا يدري، ودائما ما يرغب في تغيير الماضي، لكن ذلك مستحيل، وقد كانت بعض المشاهد التي رآها حقيقة، تلك النافذة ومعاناته معها، عندما يحاول إغلاقها، كانت ذكريات لا تنسى. بعد سنوات بدل أبوه النوافذ في البيت لأخرى من الحديد بدلا عن الخشب، طليت بالبوهية، قام بشير بعملية الطلاء، كان تمرينا ساخنا استغرق منه نصف يوم، تعلم فيه استخدام الفرشاة وبعد أيام استعان به الجيران في طلاء منازلهم.

فتح مفكرته، لم يكن ثمة موعد جديد هذا الأسبوع، الحياة أحيانا تسير ببطء وتثاقل، وأحيانا تجري بلا هوادة، وكنوع من عدم الرضى عن الواقع نام حتى قيلولة اليوم التالي، رأى نفسه في مكان واسع أشبه بساحة السجن، كان مكلفا بإخراج أحد الناس من السجن، لا يتذكر اسمه الآن، هناك غرفتان صغيرتان في حجم الحمام، لهما أبواب من الحديد مطلية باللون البيج، هل نظر داخلهما؟. ربما .

تبدوان خاليتين وليس ثمة أحد بالداخل، ويمكن فتحهما بسهولة. لكن من قال له أنهما زنزانتين؟!. قابل ود العوض الذي كان مرتادا لسجون مدن العتامير، هو مكار وكانت تربطه معه علاقة خاصة، كان يعمل مروجا للقوافل التجارية في السوق، سأله من المسؤول عن السجن .

صحبه ود العوض إلى رجل عرفه عليه، تخيل أنه يعرفه من قبل، وعده بأن يأخذه إلى الزنزانتين، لكي يرى من يبحث عنه، فجأة انطمست المعالم، فالزنزانتين كانتا خاليتين، لا أحد بهما.

فتح عينيه بصعوبة، كانت علوية نائمة، تحتضن منير، ومريم جالسة تطرز شالا من الصوف، جزء من عاداتها القديمة، لا تريد أن تتركها، في وقت مضى كان هذا نوع من الرزق وكسب المال. قالت له :

"سأل عنك رجل وأنت نائم، طرق الباب وذهب ."

لم تتذكر اسمه ولا شكله ولا مراده. كانت كأنها تهزئي، فقد حاصرتها الشيخوخة، بعد أن ذاب جسدها تحت الشمس وهي تبيع الطواقي في سوق العتامير في زمن الفقر بعد رحيل العبادي. كانت القوافل التجارية تصعد وتهبط في تلك الأيام ومريم تحلم بولادة عالم جديد يغير الحال تشعر بأن الحياة تخنقها بالضيق بعد أن انسدت دروب العالم الواسعة..

27

بعد عودتي كنت قد استأجرت مكتبا في شارع البرلمان، أعددته بما تبقى لدي من مال ليكون مقهى للإنترنت، أطلقت عليه مقهى العتامير، الأشياء تبدو بعيدة وتقترب، تتلاشى، كأنها أحلام، أو كأنها لم تكن أو لم تولد بعد .

شارع البرلمان ما يزال يحمل اسمه القديم الذي اكتسبه قبل نصف قرن عندما كان البرلمان يقوم فيه، الآن تحول البرلمان إلى مبنى حديث على الطراز الإيطالي (الأكروبولز) قائما عند ملتقى النهرين، ظل الشارع يحتفظ بالاسم، شأن العديد من الشوارع والأمكنة تتغير أحوالها ولا تتغير أسماؤها.

مقهى العتامير يقع في عمارة "كافي" في قلب الشارع ذي الاتجاه الواحد نحو الشرق، حيث تطل العمارة بمكاتبها العتيقة على رائحة زمن ما انطوى في الغياهب ما يزال الناس يحصدون جراحه الموجعة، فهو لم يمت ظل معلقا في فصيلة الإعدام هكذا بلا نهاية، وعلى مدى نصف قرن كامل .

تصعد زمزم الفلاتية بائعة الشاي سلالم العمارة العتيقة أول الصبح، لا تغادرها إلا عند دخول المساء، بعد أن تغلق المكاتب أبوابها، مكاتب المحامين وشركات الكمبيوتر. رأيتها أول مرة فخلتها بائعة المحل الصغير في الرميلة، وزاد استغرابي عندما اقتربت منها أكثر وتفحصت في تفاصيل وجهها المغطى بغبار السنوات القاحلة، قلت " سبحان الله " كأنها قطعة منسوخة لتلك المرأة، لو

كانت زمزم العتامير حية لما ترددت ولأيقنت بأنها هي هاجرت مثل الآلاف من أهل الرميلة إلى هنا تبحث عن مصب جديد للأحلام والرزق الحلال.

تصعد زمزم قبل كل الأشياء والناس إلى طابق مكاتب المحامين في عمارة "كافي"، تحمل قفة الأواني وأدوات مهنتها فوق رأسها، تعالج الحياء بالانكسار يمينا وشمالا كي لا تصطدم بأحد في السلم الضيق، شبه المظلم، تخشى أن يناديها الملازم حسن من مكتب الجوازات التابع لوزارة الداخلية ليقول لها :

"يا حاجة أين هويتك؟."

كانت بلا هوية، تعرف أنها جاءت قبل سنوات بعيدة من بلاد البرنو في غرب أفريقيا مع إحدى رحلات الحجيج الذاهبين إلى مكة وأعجزها الفقر أن تواصل المشوار، كان لها ولد واحد ذهب مع ريح الأيام. لكن الملازم حسن، ذلك الشاب المعتز بمهنته الذي يحلم يوما ما بأحداث انقلاب في البلد يغير الأحوال ويضع كل شيء في موضعه الصحيح كما تعود أن يرى العساكر يصبحون رؤساء بلا هوادة في هذا البلد، يقابل العجوز مبتسما في وجهها كعادته يقول لها:

"واحد جبنة يا حاجة زمزم."

تضحك الحاجة في خفت وتجيبه:

" سكر ثقيل طبعاً."

تواصل حاجة زمزم صعود السلم العتيق حتى تصل سطح العمارة حيث يقوم مقهى العتامير جوار مكاتب المحامين وهم يجلسون على كراسي من الحديد جُلّدت بالبلاستيك، ينفثون دخان البرنجي في الهواء الطلق ويتبادلون صحف الخرطوم والأحاديث الصباحية عن احتمالات تدس نفسها وراء الأيام المقبلة .

لا جديد رغم كل الاحتمالات والتكهنات "استمرار الحرب في الجنوب.. المتمردون دخلوا مدن جديدة .. الوساطة فشلت .. المراقب الأمريكي يتحدث عن مزيد من الأدلة لانتهاك حقوق الإنسان في السودان.. تلاعبات مالية كبرى في أحد المصارف الوطنية .. وفاة مواطنين في حادث انقلاب بص في طريق الخرطوم مدني .. توالي انقطاع التيار الكهربائي في عدد من أحياء العاصمة المثلثة."

نهضت من على الكرسي عندما رأيت حاجة زمزم تطل بقامتها الطويلة وراء برج السلم، تأوهت، غبت في مكتبي الصغير أقلب بعض الملفات، أفكر في عمل جديد، سمسرة السيارات مثلا، والتي تحولت لتجارة رابحة، مقهى الإنترنت كان مشروعا فاشلا، ذهب بما تبقى معي من مال، المقاهي تحتاج لأماكن عامة وسط الأحياء السكنية .

أمس حدثني إبراهيم المحامي بأنه سيترك المحاماة ويتوكل على الله ليدخل كرين السيارات في الخرطوم بحري، وحاول إقناعي بأن نضع ما نملك من مال قليل سويا في سلة واحدة، ندخل السوق ونجرب، كان أن ضحكت في وجهه وقلت له:

"أنا يا إبراهيم رجل مسكين لا يفهم في أمور الكرينات."

حاول إقناعي بشتى الوسائل لكنني رفضت لينتهي حوارنا بأن يعض إبراهيم أكمام جلبابه، يقول لي وهو يغادرني:

"سأذهب وأتعلم من دخل السوق وكان يعرف المخابئ منذ البداية."

قبل أن أكمل استرسل في أفكاري الخيالية التي لا تنتهي، بعد خروج إبراهيم قاطعني صوت هامس مع توقف عزف الحذاء على أرضية المقهى، كانت عائشة أمامي، سألتني مباشرة قبل أن تسلم عليّ:

"فيما تفكر .. ما لك مهموما؟."

حاولت أن أبعدها عن مشكلاتي، أن لا أضعها معي على نفس طاولة تفكيري، كانت ما تزال في بساطتها، تحن لعودتي العاجلة أعيد إليها أنوثتها بعد أن غربلتها الحياة القاسية في الخرطوم، ربما كانت تحلم بابن الحلال مهما كان شكله ولونه، كنت أحاول الهرب من أسئلتها اللحوحة، ما هي مشروعاتك القادمة؟ ما هي أخبار العمل في المقهى؟

دعوتها لشراب الشاي من حاجة زمزم، قالت لي:

"دع الشاي يطير وحدثني ما بك؟"

وجدتني صامتا لا أرد عليها، كانت تعاني أحزان زمن الأنهار العكرة فقد دخل الزمن فجأة في أنهار بلا مصبات وجعت البشر وحاصرتهم بالاستغراب

والحاجة للاستقرار، أن يصنعوا ثمرة لحياتهم، جاءت إلى الخرطوم لتكمل دراساتها بعد أن تأخر الزواج، حدثني بأنها تعد لماجستير في التنمية الريفية، وتفكر في الهجرة للعمل معلمة في الخليج، سألتها:

"هل ما يزال الريف موجودا؟ هل تبقى أحد به؟"

شحنتني بالكلمات المتباعدة عن علاقتها القديمة مع مرتضى، اشتكت بأنه لم يعد يهتم بها، سألتني:

"لماذا يصر على تجاهلي ولا يراسلني؟"

قالت لي :

"كنت انتظرك وفكرت أن أقتل الزمن بمواصلة دراستي، بدلا من الجلوس الممل في بيوت الطين الموحشة."

كنت أعرف أن أشياء كثيرة كانت تقلقها، في الأيام الأخيرة ترددت عليّ كثيرا، ترى فيّ صورة مرتضى القديمة، تحتاج لمن يحادثها، يحاورها، يحسها بأنها أنثى وليس شجرة ذابلة، تحس بالانتماء له، ربما كانت لا تزال تفكر فيّ زوجا لها، أقلقها تجاهلي وعدم سؤالي عنها، سنها تقدمت.

28

ساد الصمت للحظات، صمتت الأزمنة القادمة في ثبات عميق، بدأ شارع البرلمان من على نافذة المكتب الزجاجية مزدحما بالسيارات الصاعدة لاتجاه واحد، كان رجال معممون بثياب بيضاء يصعدون السلالم ويهبطون يسألون عن مكتب لأداء إجراءات السفر إلى العمرة، يحلمون ببلاد يتبدل فيها الحال بعد أن أخذت إدارة المشروع الزراعي الذين يعملون فيه الحواشات وزرعت محاصيل جديدة لم يألفوها من قبل بدل القطن.

كافتريا (نيو تايمز) ذات المدخل العريض والطابق العلوي المزنين اشرعت أبوابها يقف أمامها شاب وشابة يتناولان عصير المانجو، وضعت الشابة كوب المانجو على المنضدة في منتصفه قبل أن تكمله تعاجل خطواتها هربا، حاول الشاب أن يلحق بها، استعجلت الخطو، غابت عنه داخل أحد محلات الأناتيك التي يمتلكها الأقباط، كانوا يكابدون الدنيا في آخر أيام ثراءهم، يحسون بالاغتراب في وطن احتضنهم ذات يوم، كأنما استيقظوا فجأة، ليحسوا بغربة أليمة، كان الجميع يحسون بها، هاجر أغلبهم في السنوات الأخيرة إلى استراليا يبحثون عن ملاذات جديدة لهم في الحياة .

حاول الشاب أن يدخل وراء البنت في محل الأناتيك، واجهه رجل قصير القامة، أبيض اللون، ضخم الجثة، يرتدي سلسلا ذهبيا معلقا على رقبته ينتهي بصليب وقرطا على أذنه اليسرى، سد الرجل الباب أمامه سأله :

"نعم ماذا تريد؟ .."

"منى دخلت هنا يا حاج.."

"أي منى يا ولد ، وأي حاج ! ألا ترى الصليب أم أنك أعمى ."

ارتد الشاب حاملا رجليه المثقلتين وسط غابة الخرطوم، ضاع بين أولاد الشمس، النازحين من جحيم الحرب في الجنوب، تأفف من حاله، كانت الأحوال قد غيرت الحياة، والظروف ، وصارت الثروة تستقطب النساء .

جلست معي آمنة ساعة كاملة عند مقهى أسمرا تحت الشمس الدافئة، احتسينا القهوة الإريترية سويا، كان الشاب ما يزال جالسا مهموما يراقب حركة البناء في إحدى العمارات المجاورة يعض إبهامه الأيسر تتقطر الدموع من مقلتيه، تنهمر دون أن يتحكم فيها، تسد مسامات الوجع فيه، خلت أن الزمان يقوده إلى جداول الطين والجروف في الشمال فقد بدت ملامحه الشمالية مميزة .

29

مقهى أسمرا محاط برائحة إريتريا التي خرجتها لتوها وطنا جديدا، بعد حرب طويلة مع الجنوب الأثيوبي، يرتاده شباب ذوو بشرة سمراء يحلمون بالحكم هناك، يكتبون الأشعار والقصص ويحكون النوادر عن حكومة ما بعد الاستقلال، ويرددون" لقد خرجنا من ورطة الحبش لكننا دخلنا في ورطة جديدة"، كانت هذه الكلمات تخيفني، فأفكاري تجاه سودان موحد تبدو غير منطقية .

غاب كل شيء تبخر لكن الملامح لم تتغير، كانت آمنة قد سرقت قلبي ذات يوم ولم ترد راحتي، ما زلت متوجعا، وكانت أكلم نفسي عندما أتذكر جرجي "أف للنساء أف"، كانت الأفكار المختلطة، تحيط بي .

قبل أن أعبر الشارع معها انزلقت قدماي على الأرض المبتلة بماء المطر، لكنني تماسكت وقمت سراعا، وقفت أمام باب السجائر القادم من الجنوب اشتريت علبة سجائر ماركة برنجي. فتحتها، أشعلت البرنجي أنفث دخانه في هواء الخرطوم الحار ضد كل الغضب الذي حلق حولي، دفعت قدماي، أشعر بالإعياء وضيق الخلق، رافقني آمنة كظلي غير قادر على التخلص منها.

مر بنا شاب معوق بالي الملابس في إحدى صالات دكاكين المجوهرات يبيع صحف الصباح.

كان حبا جديدا قد دخل قلبي في ذلك الصباح الجديد، كنت أحسه، لا أحدد موقعه، هل هو مجرد حالة عابرة، كان لابد لي أن أمتلك المزيد من الحذر هذه المرة حتى لا أقع في خيبة جديدة، أو أخون آمنة، لكنني كنت عاجزا عن التحكم في مشاعري، بدأت اشعر بأنني غريب فعلا، غريب عن هذا الوطن، غريب عن ذاتي، وأن آمنة أشد غربة عني، بعد أن تعرفت على علوية، وسألت نفسي :

"هل أنا أحبها بصدق، أم أحب ثروة أبيها؟ "

لكني قاومت السؤال، هربت منه سريعا، أعزي نفسي بالحب الجديد.

أنشدت آمنة لي قصيدة جديدة يتداولها الشباب في الجامعات، تتحدث عن رحلتهم المكسورة وأحزانهم، وقهرهم الذي لا ينتهي، يحلمون بوطن يشبه العصافير، يشتكون من أمة من خزف، لا تحتفي بأبنائها، يبحثون عن زمان أرحب:

.." وطن كالعصافير

أمة من خزف

عندما تشرق الشمس في بلاد الملايين

يولد الملاعين

يسرقون الضوء

قادمين من زمان الجنون."

.."أمة تتعشى بالعذاب

تتغذى بالضباب

أمة من سراب..".."

سألتني عن رأيي في القصيدة، لم أقل لها كرهت الشعر، لم أعد أتذكره منذ طفولتي، نسيت الكتابة، هذا زمن الأرقام والهوتميل، لم أقل لها الشعر ليس واقعا، الشعر أكذوبة، أثرت الصمت وأشعلت سجارة أخرى، أشعر برغبة في الدمار والموت، أحس باليأس يحاصرني ممتزجا برائحة الموت والحب، في لحظات قد يكون الموت والحب وجهان لعملة القهر .

لم أهتم بما كانت آمنة تقوله لي بأن حياتي ملك للجميع وليس من حقي أن أدمرها بالدخان، وقالت لي كلمات كنت كأنني أسمعها لأول مرة منها، شعرت بعدها بالخوف الذي لم أدرك له سببا أو موضعا:

"أن لم تكن حياتك للجميع ، فأنا شريكتك في هذه الحياة ."

كدت أن أصرخ فيها، أقول لها أنت كاذبة ومخادعة كلكن كاذبات ومخادعات؟ لكنني باغتها مباشرة بلا مقدمات فاجأتها وبجرأة:

"آمنة هل ما زلت تفكرين بأني من الممكن أن أتزوجك؟"

غريب أن ملامح وجهها لم تتغير، هن نساء الزمن الجديد، قالت لي وببرود شديد:

"فكّر يا بشير لا تستعجل"

30

ضُربت على المكتب بكلتا يدي ونزعت الكارفتة، ألقيت بها أرضا وأنا أفكر في مأزقي، أشعلت سيجارة أخرى وأخرى، نفثت الدخان في الهواء، أسوّد العالم أمام عيني، كل الأشياء تصاغرت، آمنة صارت وهما قديما، كبر وهم جديد، لكنه سرعان ما تصاغر أمام الدخان الكثيف ليصبح نقطة سوداء، ثقب أسود في مجرة بعيدة يبتلع الكون بأسره، فلا يعود له أثر، بصقت في الهواء، اسمع صوت عويل يأتي من مكان ما، بكاء خافت يرتفع شيئا فشيئا، كأنما كنت في حلم.

سمعت صوت يقول لي :

"أنا مخطئة، أن أضع ثقتي فيك ."

قلت للصوت :

"كلكن مخادعات، كاذبات خائنات تبحثن عن رجال أثرياء ."

تسارعت الأقدام بالهرب من أمامي. بعد لحظات اكتشفت أنني بصقت في وجهها، شعرت بالندم يحيط بي، هل كنت أحمق؟ .

هرولت مسرعا إلى السلم العتيق، أناديها، كانت قد حملت حقيبتها الجلدية، لملمت أوراقها على عجل، ورحلت.

عندما أدركت السلم المظلم في أول النهار، لم أجدها، كانت قد اختفت، كل شيء في زماننا يتسرب منا في عنف دون أن نسيطر عليه، قد نكون غافلين أحيانا، أو ربما هو الحظ، وربما العمى الذي غلف الحياة، جعل الناس لا يرون الأشياء كما ينبغي .

صعدت السلم، تتصاعد أنفاسي المتسارعة، وصلت مقهى العتامير، جلست وراء مكتبي، وراء الفاصل الخشبي، ثمة شيء لزج على الطاولة يشبه رذاذ المطر الذي بدأ في السقوط في الخارج، كان الخوف في داخلي قد تلاشى، واجهت غضبي بالضحك المتواصل، ليس ثمة ما يستحق التفكير والحزن في الحياة، ناديت بأعلى صوتي :

"حاجة زمزم واحد شاي."

قاطعت صياحي:

"لو سمحت قهوة"

كنت قد شربت شايا كثيرا منذ الصباح الباكر، لكن حاجة زمزم ردت عليّ بأن عليّ الانتظار حتى يسخن الماء في البراد.

31

كان أبي لا يزال في إحدى رحلاته إلى عتامير مصر، عندما ضمتني أمي إلى صدرها في حنين دافق، وأرضعتني من ثديها رغم أني كبرت على الرضاعة .

نمت لم استيقظ إلا في اليوم التالي. كانت أمي تعد شاي الصباح في المطبخ الصغير. دغدغت عيني وأنا أسمع صوت يرتل القران، عرفت أن أبي قد عاد من رحلته قبل بزوغ الفجر، بعد أن عبر العتامير إلى حدود مصر يحمل سن الفيل وريش النعام المهربين، وسمعت أمي تغازله.

تشاغلت بصور مطموسة وراء عيني المغمضتين حتى لا أشعرهما بالحرج، كنت أدرك أن مثل هذه الأمور تحرج الكبار. بعد قليل فتحت عيني للصباح الجديد أسمع مريم تناديني مازحة كانت فرحة لعودة العبادي، فقد كانت لا تحب الطعم اللاذع لغيابه في رحلاته المتكررة.

عندما خرجت من الرميلة في رحلتي القديمة إلى عتامير مصر على طريقة أبى وأجدادي كنت أعرف أن أمي تعودت على طعم الرحيل من رحلات أبي المتكررة في زمن مضى لكنني كنت أدرك تماما أن رحيلي سيكون له تأثيرا مختلفا عليها، كان أن ذهبت، وظل رحيلي يؤرقها يوما بعد يوم حتى قضت على هذا الأرق بالنسيان المختلق وهي تتذكر موت العبادي الذي جاء بلا مقدمات .

كانت ثمة ليال أشبه بلون الموت تحاصر أمي وظلت لنهارات طويلة تذهب هنا وهناك تخاطب النهر والخيران الموسمية في الرميلة والجروف على شاطئ النهر، تشتكي لا أحد يسمع لها فقد كان الناس مشغولين بأحوالهم، يفكرون في أشياء مختلفة .

كانت تراني عالما بل كونا يصنع الفرح في حياتها، وكانت الرميلة الواقعة على ضفاف النهر وأطراف الصحراء تعاني في تلك الأيام زحف الصحراء برمالها جهرة في النهار يوما بعد يوم، حتى ليكاد المرء يقول إن هذا الزحف السريع المتلاحق سيدفن النهر في يوم من الأيام ليعود نسيا منسيا.

في المرة الثانية بعد أن هربت في قطار الإكسبرس جنوبا إلى الخرطوم تحولت المعالم، اكتشفت أمي أن الناس يهربون جنوبا شهرا بعد شهر وأن الغربان بدأت تسكن جل البيوت في الرميلة، وظلت تستعين بالصلاة والصبر والدعاء المتواصل تحاول أن تقتل الخوف من المجهول في داخلها. أحيانا كانت تمارس الحلم ترى أحلام اليقظة طاقة تتحدى بها الواقع ونجوى ضد خبث ومكيدة الوجود.

تراني في أحلامها أقف أمامها عائدا أشبه طين الأرض أطاول الأشجار الشوكية ونباتات السنمكة وجزائر الفول والفاصوليا المحيطة بالبيوت. كانت تخاف لأن جدي خرج ولم يعد، وهأناذا أخرج وقد لا أعود، كان جدي قد خرج بعد أن ترك نصف الأرض التي ورثها أولاد العوض الآن، بعد أن رباهم أبوهم على المكيدة والدهاء الطيبين، وأدبهم على احترام الناس، فكسبوا الأرض والناس.

لم يكن جدي قد باع الأرض، ولا يعرف أبي كيف ألت أرضهم ومزارعهم لأولاد العوض من أبيه، كانت أشياء كثيرة تحدث في حياة الناس لا يعرفون لا سببا ولا تفسيرا غير القدر، أذكر أنني سأل أبي ذات مرة :

"هل باع جدي الأرض لأولاد العوض قبل أن يرحل؟ ."

شرح لي أن جدي لم يتعود أن يبيع ويشتري، كان صاحب اليد العليا دائما، لكن الذين يصبحون مشائخ وأصحاب جاه وسلطان يستحقون كل شئ، العالم بأثره يعمل لهم ومن أجلهم خلق. قلت له :

"حتى الأرض التي تمنحنا الحياة نتركها لهم ."

أحس أبي بشيء من الخوف بعد سؤالي وأختصر لي الجواب بقوله:

"حتى الأرض يا ولدي، فمن يخرج على طاعة أولياء الله، يعصى الله، أستغفر ربك، أولاد العوض هم الأغنياء في الدنيا والآخرة ."

حدثت نفسي بالأمر كثيرا وأنا أراقب النجوم في سماء صيف غائظ راقدا على السرير في الحوش الكبير، قطعت أمي حديثي بعد عودتها من المرحاض ، بعد أن وضعت الإبريق تحت السرير تقول لي :

"أحمد الله أنك كبرت وتعلمت، الأرض يا ولدي جاه يذهب ويعود، لكن المعرفة لا تعوض."

كان رحيلي إلى الخرطوم لأكمل دراستي في الجامعة، وسافرت ظنا مني بأن الحياة سوف تأتي بالجديد، فالمال في الرميلة لم يكن له غير دروب محددة لا يغادرها، يخرج من أولاد العوض ويعود إليهم مرة أخرى .

كانت مريم تفكر في ذات ما كنت أفكر فيه فقالت لي:

"الحياة يا ولدي تريد الصبر، والصبر مفتاح الفرج، أولاد العوض لا تستطيع أن تقول عنهم شيئا، أنت ستجد رزقك ومرادك لو كان الله قد كتب لك ذلك فلا تستعجل."

32

وأزف زمان الرحيل الثالث في ليل شتوي كأنه من أيام اليوم الآخر، كانت الوجوه شاحبة سوداء، وعجلات القطار تطوي الصحراء الموازية للنهر .

أصوات الطبول تبتعد وتقترب في الظلام الدامس تأتي من قرى متناثرة على ضفاف النهر، في كل قرية من هذه القرى أتباعا لأولاد العوض. كنت أراقب القرى من نافذة القطار، أتذكر أن أمي حدثتني في طفولتي بأن أولاد العوض لهم حيران لا حد لهم ولا عد، وأخذتني في يوم الرجبية(27رجب) لأرى ذلك الحشد الرهيب من البشر الذين جاءوا من أقاصي القرى لحوش أولاد العوض الكبير .

رأيت قدور الطعام يحملها الرجال الأقوياء، كل عشرة منهم يحملون قدرا، كان الناس يأكلون ويشربون ويحمدون الله ويدعون لأولاد العوض بطول العمر والمال والسلطان، لا يفتر الناس عن الذكر والرقص وراء الطبول الضاربة، ولا تفتر الطبول من النقر والضرب عليها حتى الفجر حتى لكأنها تبكي وتقول " هذا آخر الزمان .. هذا آخر الزمان."

القرى تسابق بعضها البعض وراء القطار، وأنا أشعر بألم كبير أن أظلم أولاد العوض في تفكيري بأنهم لا يستحقون الجاه والسلطان وحب الناس لهم، قلت في نفسي " هؤلاء الناس لو لم يكونوا عباقرة وأذكياء وصالحين، ولو لم يحصلوا رضى الله لما جمعوا الناس حولهم."

بالفعل كان الناس يتوافدون إليهم طوال الليل والنهار وفي كل مواسم السنة، وكان أولاد العوض لا يكلون ولا يملون ولا يرفضون أحدا، لا ينقطع رزقهم المنهمر كالمطر، كانوا ملوك البر والبحر. و تذكرت أن أبي كان يردد حكمة ورثها عن أبيه تقول " المرء في هذه الحياة يجني ثمرة ذكائه وعبقريته، ويكون نصيبه من العالم بالقدر الذي يحمله من الفكر، حتى لو أنه قاسى أشد الظروف في حياته فسوف يأت عليه اليوم الذي يمتلك فيه ما يصبو إليه، ليجد موضعه في الوجود."

يحكي أبي أنه يوم جاء العوض الجد الأكبر لأسرة العوض كانت دورة جديدة من الحياة قد بدأت في الرميلة بعد أن كادت الحياة أن تتوقف في ضمور قاتل، كانت ملامح المكان لم تتبلور بعد ثمة نجوم بعيدة تبدو وتختفي وسحب داكنة في الصباحات الباكرة تغطي شعاعات الشمس المتصلة بأرض الرميلة، أمواج النهر تنخفض وترتفع مثل قلب محب نابض في تلك البيوت الطينية المتصلة في خط واحد مواز للنهر حيث يرقد في وسطها السوق الكبير الذي يستقبل الناس في الفجر .

في زمان مضى كان هذا السوق من أكبر الأسواق في أفريقيا ما بين المدارين، لم يكن سوقا واحدا بل كانت أسواق كثيرة متداخلة عامرة بالزبائن وتجارة الذهب والعبيد وريش النعام وسن الفيل الرائجة، وكان أفراد قبيلة العبابدة المتحركة بين مصر والسودان بزيهم المميز أصحاب جولات وصولات في السوق يفيضون بالذهب كأنما يخبئون مناجم تحت الأرض لا أحد يستطيع أن

يطاولهم في البيع والشراء، أين يبيعون وماذا كانوا يبيعون؟. الله وحده أعلم، لا أحد يعرف السر ولا أحد يدرك الحيل التي كانوا يستخدمونها في التجارة، بل لا أحد خبر دروب الصحراء مثلهم، كانوا لا يعطون سرهم ولا سر تجارتهم الرابحة، ويقال أنهم ربما أدركوا أسواقا ما وراء البحار في زمن لم تكن فيه دروب الرزق قد اتسعت في زمن كانت فيه الكثير من قوافل التجار حديثة العهد تتوه بما حملت وتنتهي للضياع والموت في صحراء العتامير.

في ذلك الزمن جاء العوض محملا بأثقال الحزن الذي سينفض في رمال المدن الجديدة في الصحراء على ضفاف النهر زاده حكمته التي آمن بها "الحزن يطهر قلوب الرجال" ودائما ما يردد "أن تلتقي الآخرين، أن تحاورهم وتعيش معهم أمر صعب لأن جل البشر لا يحفظون الود ويخونون أمانة العشرة."

كان الحزن يغطي لياليه والمراد والطموح وقتذاك نجوم صغيرة، عندما يقترب المرء منها يجدها واسعة كبيرة تفيض بالحرارة والنار.

وأكتشف العوض معنى الوجود وأن لا شيء له قيمة والإنسان بلا مغزى إن لم يكن صاحب جاه وسلطان، لا بد من الجاه، فالمال يصنع الرجال ويعزّهم، الذين بلا مال هم طبول جوفاء لا تُقرع فالحكمة وحدها لا تكفي المرء ليكسب نفسه ويكسب العالم من حوله.

أدرك العوض المعنى وغذى حكمته بصبره وذكائه في زمان مبكر لم يكتشف فيه الناس المغزى من وجودهم بعد، كان الناس في ذلك الزمن يبيعون حكمتهم

ونصيبهم من الدنيا وهم لا يدركون وعندما يكتشفون الخديعة متأخرا يصعب عليهم الندم لأن الزمن لا يتوقف لأحد مهما كان كبيرا، فالأشياء تسير وتسلك مسالكها الأخرى.

أدرك العوض أن مجد الرجل يصنعه الرجل نفسه، فلا أخ ولا صاحب ولا ولد يعين المرء على مقارعة وحل العالم، فالوجود كله كذب وافتراء وتبقى الحقيقة أن الإنسان وحده يواجه قدره ويصنع معنى وجوده في هذا الكون العريض .

وفي زمان كان الناس يمرحون فيه ويسرحون كالبهائم دبر وخطط ونفذ خريطة المستقبل موقنا منذ زمن بعيد بأن أحفاده هم الذين سيمتلكون زمام الأمور وينالون حظ الدنيا والدين في هذه البقعة من الأرض .

توطدت علاقاته مع الناس، وبين حزنه وعذابه استطاع أن يؤسس لسيرة طيبة تدافعت بها الأيام ما بين تقوى ومحبة ليحتل مكانته التي لن ينافسه عليها أحد من العالمين .

33

عندما جاء لأول مرة من وحل العتامير، جاء أشعث أغبر لا تاريخ له، لا أخ ولا صاحب ولا ولد، دفعت به الأيام إلى حيث سيصنع تاريخه ومجده مؤمنا بأن الإنسان ينسب للأرض التي تعطيه ويعطيها وليس مهما أين كانت الأرض التي دفن أجداده تحتها، كان يقول:

"في الأرض مواطن رحبة للذين تضيف بهم مواطنهم، والأذكياء هم الذين يعرفون كيف يحققون طموحاتهم ويكسبون المجد."

جاء في زمن ضاق فيه الحال أيام حكم بشير العبادي الحفيد الأصغر للعبادي الكبير واستطاع بعبقريته أن يقود بشير للخروج من مزلقان الانهيار وهاوية الظلم التي وقعت فيها الرميلة، كان الناس يتضجرون سرا على الظلم الذي عمّ لكنهم كانوا عاجزين عن مقارعته، ولولا أن قلب بشير كان ابيضا لما استطاع العوض أن يغير من الأحوال في فترة من الزمان غابت الكثير من تفاصيلها .

عيّن بشير العوض ساعدا ايمنا له في مهمته التي أوكلها له الجد، ولم يكن بإمكان بشير أن يعيد سلطان وسطوة العبابدة في الصحراء إلا بمساعدة العوض.

عندما أوكل له الجد مهمة بناء الصحراء من جديد بعد التمزق الذي سادها والفوضى كان بشير جاهلا لدروب الصحراء، لم يخبرها بعد أو أدرك أسرارها،

وكانت معرفته بعلم الفلك والنجوم ما تزال متواضعة، لكنه لم يجد بدا من قبول المهمة العسيرة فرفضه بأي شكل من الأشكال أو محاولات الاعتذار بصغر السن أو غياب الخبرة لن تجد غير تفسير واحد عند الجميع، لكن المهم هو تفسير الجد الذي سيفهم الأمر على أنه خروج عن سلطته ورغبة في التمرد عليه خاصة بعد أن استشرى التمرد في الواحات والقرى المتناثرة وحاصر الرميلة .

كان العبادي الكبير قد هرم وتجاوزت سنه المائة عام، لكنه كان قادرا على تصريف الأمور بشكل مدهش وبحزم وطغيان لم يعرف له مثيل منذ قرون طويلة، لكنه شعر باقتراب نهايته ولا بد أن تستمر سيادة العبابدة في الصحراء وضفاف النهر.

قبل بشير المهمة ونجح فيها بسبب العوض وحيله، قبلها وهو يدرك تماما بأنها كانت نوعا من التهيئة والتدريب له من قبل الجد على الحكم .

أراد الجد أن يستعيد سيادة الصحراء وكانت خلافة الحفيد رسالة واضحة فهمها الجميع على أنها تعني بأن أيام العبابدة لن تموت وأن العبادي الأصغر في طريقه لخلافة العبادي الكبير. ولخص الجد المهمة لحفيده في كلمتين " نفوذ العتامير"، والنفوذ كانت تعني للعبادي الكبير السيادة والسلطان أما العتامير فقد كانت تلك الأراضي الممتدة شرق وغرب النهر إلى حدود مصر في مناطق دراو وشلاتين .

دائما ما تكون البدايات صعبة ومحفوفة بالخطر والمفاجآت وعلى العاقل أن يحتمل وأن يعرف كيف يدير الأمور بحكمة، لكن منطق الجد كان معكوسا كان يرى أن البدايات سهلة. قال لبشير :

"البداية سهلة يا ولدي، لكن الصعب هو أن تنتهي لنتائج موفقة وأن تحافظ على المجد."

وثق بشير في كلام الجد، وفي تنفيذ أوامره التي تبدو غريبة وغير منطقية، ورغم إدراكه لعجزه أمتلكه شعور بأنه سينجح في المهمة بعد أن حفظ الحكمة التي حدثه عنها الجد وشرح له أنها تنقص الكثيرون ممن فكروا في تعديل نظم الحياة أو إحداث انقلاب فيها ممن يظنون أن نهاية العبادي الكبير سوف تأت سريعا فكان أن تسارعت الأيام دون أن يحصدوا مبتغاهم فقد زُج بالمئات منهم في سجون العبادي، بينما لقي مئات آخرين حتفهم ما وراء الجبال، يقادون في وضح النهار ويتركون هناك ليموتون من العطش والجوع.

34

في زمن نفوذ العتامير الأول وهو الزمن الذي حكم فيه الجد الأكبر، كان الناس ينهزمون أمام المصلحة مضحين بالمبادئ رغم أنهم كانوا يرددون بصوت عال مسموع للكل أنهم حريصون على حماية المبادئ لأنها مقدسة وشريفة بالنسبة لهم ولأنها لا تمثلهم فحسب بل تعني تأكيدا وتجذيرا لقيمهم ودينهم وقد تأكد ذلك للناس بعد أن رأوا أن الذين خرجوا عن السلطان لقوا المصير المحتوم فصارت العتامير قرى ذات مصالح مشتركة متبادلة، تسيّرها القاعدة المعروفة والمحفوظة عن ظهر قلب للجميع (أنا أضع مصلحتي في العبادي، والعبادي يصنع مصلحته فيّ).

فهم بشير المغزى مبكرا، لكنه لم يكن قادرا على مواجهة سلطان الجد وبطشه، أعماه الحب عن الخروج والتمرد، كان قد أدرك أن المصالح الجوفاء الكاذبة بدلت الأحوال في الصحراء وغيرت من طرق الحياة فيها، ويوم أوكلت المهمة له نشر الجد بيانا في الرميلة حفظه الناس جاء فيه " لا تقف في طريق مصلحتي، حتى أضع لك اعتبارا "، وأذيع البيان على الملأ بعد أن جمع العبادي مجلسه الموقر المكون من أحد عشر مساعدا وأوصاهم بالبيان المطول شفاهة، كان كأنه يودعهم وقد اجلس بشير على يمينه يراقب عيون الرجال، لم يكن عمره قد تجاوز السادسة عشر بعد. وقال العبادي لمساعديه :" يجب أن تفهموا قاعدة المصالح في الزمن القادم، ستختلف بعض الأشياء، لكن

أشياء كثيرة ستظل كما هي، المصلحة تعني باختصار المال (الفلوس) المادة وبريقها، الجاه والسلطان، السيطرة والقوة وتملك الآخرين."

فهم مساعدوه أن "العنف هو اللغة الظافرة والمنطق الأبدي، أن تقتل وتنزع وتحارب وتبيد في سبيل أن تسود وتبقى وتنتصر وتكون المفرد الذي لا شريك له."

كي لا تفهم الأمور بغير ما أراد الجد لها أن تفهم، فقد شرح لخص كلامه قائلا : "كل المصالح تصب في نهر واحد هو نهر العتامير، وأن ذلك النهر لابد أن يحيا ولا يجب أن ينضب ". دق الجد على صدره الضيق دقتين بقوة، وقف عن مجلسه، استعرض وجوه الرجال، كانت الرؤوس قد انكسرت، وخرج الرجال يقودهم بشير في المقدمة .

35

الأشجار الأربعة ذات أغصان شوكية، ترتعش بحياء آخر الشتاء تحت مطر ملون تسبح فيه فراشات قادرة على سرقة رحيق الزهر قبل فطام الربيع. يأتي الربيع في خفة، كأنه بدء جنون قلق، يلبس العبادي في جلوسه عند عتبة الشارع، مراقبا الناقة تنحدر من منعطف الرمل. وحدته علمته الصداع الغيبي. تنتابه الآلام حذرة. تنمو في أوردة تعبر دربها إلى القلب بعد رحلة طويلة في الجسد المنهك.

مثل ملائكة صغيرة معبأة برائحة الدعاش ينزل المطر، تحته حدأة تنتظر خروج الدجاج المكوّر في شوقه للموت. أشياء كثيرة تحن للنهاية والعذاب قبل أن يدلق الوريد الدم في القلب. يرتجف العبادي من برد الشتاء وجسده يسخن. يفكر في ألم حاد بأطراف عصي ذات نهايات مرنة تدق على الجسد العاري في الشارع حتى لا يتوجع ببكاء الناقة. ذكرته الناقة بطفولته المنهكة أو الرعب، لم يتعبأ ليلتذاك بالضوء، ينتعش مع الوحدة والوحشة الرقيقة. الآن تقترب الناقة من المنعطف تحت الماء السماوي في مرايا الذهن، يظنها ترقص في حنينها للموت.

الناقة تبكي عائمة في نثار المطر. حسبه العبادي نثار الملائكة الصغيرة، رآها في الحلم تقوده إلى المنعطف، يشاهد في ليل صافي السماء مولد الولد البكر للناقة مع لمعة عيناه الصغيرتان جدا. في ميلاده المبكر مع الفجر تخيل أن

الناقة لن تعيش طويلا، وأن المدينة التي يحلم بالهروب إليها ستموت، الخريف سيطول هذا العام، وسيتأخر الربيع. انكسرت أفكاره برائحة البن المدوخ تخرج من نافذة الغرفة الحجرية. نهض خجلا من وحشته، لم ينظر إلى السماء، كان الدم في الأوردة يتشيطن ويرسم هالة حالة موجعة.

لم يلق للماء القادم من أعلى بالا فقد تدغدغت أباريق حياته بالوحشة، تأتيه على مرمى من وجع خفي يلامس بقايا أحلامه القديمة. يبدو الذهن مع الأحلام متعبا صغيرا، يحمله كحقيبة الصيد ويخرج إلى الشارع من الكهف.

منذ أن خرج العبادي من مغارة أمه متوحشا كأنه يعيش في الغابة أو كعجوز لم يفقه رموز الحلم الكبيرة في الدنيا مضت السنوات، نسي الناقة وموتها القاسي على القلب، نسي المطر، كم تأخر الربيع في ذاك العام. الكهف الذي خرج منه دفن في الرمس البعيد وراء الجبل. منعطف الرمل لم يعد للنوق، ولد عنده سوق مزدحم بالزبائن من أصحاب الحجج الكثيفة. الذي ظل في حاله شجر ينتهي بالأغصان الحادة، في الواقع لم تتبق غير أشجار أربعة تنتظر موتها.

القلب والشارع في عرف العبادي متشابهان، ولو أن القلب جميل. في رحلته القادمة إلى جنوب مصر مع قوافل التجار، سيغير عاداته وسيفهم أن القلب والشارع يتشابهان من جديد. الرحلة الأولى ميلاد عسير والثانية فيها يصرخ بشير، يخرج من مغارة أمه إلى الصحراء في فجر شتوي قاسي لا يشبه شتاء الناقة في معاناتها مع النهاية .

تألم العبادي من مسغبة الفراق يدقه في نفس مثقلة بالهموم الكسولة. ودعته مريم في سوق الهجانة، رأي وجهها منعطفا جديدا للرمال ونثار ملائكة أكبر حجما من ملائكة طفولته في حلمه الميت. لم يكن الوداع معتادا، اكتنز باطنه بالأسرار العظيمة للنهر والصحراء. ظل العبادي يتابع خطوط الرمل المتعرجة مع قافلة التجار، يراجع مشهد الوداع في دفتر السماء الغائمة، غاب عنه السر، وبعد عودته، بعد ثلاثة أشهر رأي بشير يشب بعظام قوية كعظام الجمال. لم يتوقع ذلك وخشى موت رابحة في الليل، تماما كما ماتت الناقة .

إذا ولد الطفل في الشتاء لا يكبر بسرعة. العادة تتغير عند الدعاء أو مع قوافل العتامير الصاعدة والهابطة، حتى الحمى تنكسر لتكون بردا لا يقاوم. عند الباب القصير رمى العبادي بالغطاء الثقيل. دخل الغرفة متطاولا على الفصول، حمل بشير، خرج به إلى الساحة تلعقه ذكريات الناقة. قد يبدو التصرف غبيا فالبعوض احتشد مبكرا عند الخور تحت السوق. العبادي يعرف أن دعائه مستجاب ولا يخاف، هذا الكائن المتوحش لا يخاف. الغابة القديمة التي خرج منها غابت أشجارها، لم يعد يرى جسدا هزيلا يمشي به بشير، فللولد حظه المختلف، وهذا ما لم يفهم للقبيلة.

وداع مريم لا يوصف في خاصية إدراكها لمقدم الولد البكر بعد يومين من خروج القافلة التجارية. تدرك أكثر من ذلك أنه سيشب سريعا، لم تخبر العبادي بالأسرار، ولم يستغرب منها التستر .

استغرب العبادي فرحها الطويل لا كما شاهد في الرحلة الأولى للسافل. أين ذهب حزنها المعتصر وخوفها من المجهول؟. تعودها على الوحدة مثله في أيام منعطف الرمل كأنه مات مع الرحلة الجديدة، لذا سأل نفسه بغباء ولم يعرف السبب في الفرح والضحك .

هل كانت تسمي المتوحد ميتا على شاكلة الفلاسفة المقهورين في عجزهم عن فهم المغزى؟، رؤيتها للإنسان يفقد معناه في غياب الآخر لم تعد هدفا ولا معنى. هن النساء يتغيرن بعد العرس .

شك في أمرها، ضرب بقوة على الجمل البارك، صعد على سنامه وأنطلق يحاول النسيان.

36

أدرك الصعيد المصري من ناحية الصحراء وأدرك دروب الرزق الجبارة الملعونة، ماذا كان سيفعل غير الرضاء حتى لو خاصمت رابحة الحنين. "هذا رزقنا من الله " نطقها في حذر شديد، لم يقلقه شك، تذكر أن لا أحد يعيش في الدنيا جالسا في بيته كرهت مريم الوحدة أم ألفتها. إذا كان الرزق يأتي من السماء كنثار المطر فالحدأة حلال عليها أكل الدجاج المكوّر. أما أن تموت الناقة باكية فهذا مجهول الحكمة. اختصر السؤال بأن الله لا يوزع الرزق هباء.

مريم ليست امرأة غريبة، زواجها منك حكمة غائبة .

يبرك الجمل في دراو فيرقص قلب العبادي، فكر في مغزى الرقص : هل هو رزق كبير قادم؟. في الليل نام فأدرك في الحلم أن حياته المرة لبست حلاوتها من اقترانه برابحة. في مغبة الظلام رأي ابتسامتها الهادئة تحت ضوء الفانوس، صلاتها في الثلث الأخير من الليل، دعائها، الولد البكر البشير المقذوف من مغارة غابتها، لماذا تأخر خروجه عشرين عاما؟.

اقترنا، العبادي في العاشرة لم يتخلص من مراقبة الناقة عند المنعطف، ولا حصار الصداع الغيهي، وأوردته تدخ الدم في القلب الصغير. لم يبلغ الحلم، ولا تبلغ بنت في السابعة الحلم. جاءها الطمث قبل أن يصبح رجلا بمني دافق فصبرت عليه أربع سنوات أصبح فيها رجلا .

في أول معاشرة بعد الحلم عاشر الألفة والمودة، أحس في أول ليلة بانكسار ضوء الفانوس حياء، رأي الناقة تموت، قام من اللحاف يبكي .

في دراو برك الجمل، فعرف زيس أن الليلة الأولى لم تشهد مضاجعة لامرأة ولا لجسد آخر. في خطوط الرمال رأي نفسه كمن يضاجع نفسه دون أن يمس قضيبه أو يحشره في مؤخرته. ذاب في ذاته، ورحل في السماوات العلية، ليعود للأرض طاهرا بريئا من ذنوب العالمين، قام من اللحاف يعطس، يشعر بتخلصه أخيرا من خندق الوحشية.

في العادة يرهق الزواج بعادات القبيلة. تزوج العبادي مريم برهق في مدينة وليدة على ضفاف النهر وأطراف الرمل. زواج البنت من قريبها فرض لا يغالط، ونجاحه صعب، لا أحد يخرج عن العادة أو يصرخ في السوق بضيقه. كانت البيوت خزانات الأسرار العميقة. الاختلاف قائم بين النساء والرجال. ينتهي الخلاف بالصلح في الظلام قبل احتدام المعركة لتجري الحياة في روزنامتها، يتعود الناس عليها، هكذا ألفت منذ مئات السنين اللاضوئية.

عشرين عاما ظل العبادي يحلم بالولد البكر. مريم تغلف حلمها باليقظة في منتصف الليل قبل الصلاة، تعد النجوم المتبقية في السماء. يبدأ العبادي العد قبلها وينتهي بعدها. أحيانا تبدأ من حيث انتهى. ظل البيت سرا لا يعرف أحد سره، أحاديثه تموت وتدفن في غرفة صغيرة، مثل قلب لا يشبه الشارع، قلب لنفس واحدة يحفظ أسراره، انشطر في يوم الرحلة الثانية في السوق .

في دراو فكر العبادي عن عادة حفظ السر من أين اكتسبها، هل ورثها أم علمته رابحة تقاليدها؟!. لم يفكر عميقا وبدا له أن آبائه لم يتوارثوا حفظ الأسرار. تخرج أسرار البيوت في جهرة النهار تدخل عند منعطف الرمل الميت. يتحدث أهل الهجانة في السوق عن علاقاتهم مع النساء والنساء لا يقصّرن في حكاياتهن في البيوت قبل عودة الرجال .

كم يتألم العبادي لفجاجة الحياة، يكاد يبكي فيتذكر أنه بشر وليس ناقة. بشر نما وسط مدينة تنمو بلا تاريخ. ماذا سيسمع الإنسان إذا كانت الدنيا لا تحتمل الجديد؟..

37

دخل الهجانة آخر الليل مع القافلة عائدا من صعيد مصر بالبضائع. يشتم رائحة السر الذي انكسر عند عتبة الباب يسابق حبات الفول السوداني الذي باعه في الصعيد. لو باع أحجارا كريمة مخبأة بالغرفة لربح أكثر لكن رابحة رفضت، وقالت :

"هذا ميراث الولد ."

لم يستطع إقناعها :

"الولد لو جاء يأتي برزقه ."

طرق الباب المصنوع من شجرة خامسة اقتصت قبل موت الأشجار .

فتحت مريم الغصن، ضمته في حنين، ضحك ولم يحدثها بشكله الكبير، حدث روحه: ها قد عاد الحنين. أضاء وجه مريم في بقايا نور القمر البعيد. عيونها ارتجفت هنيهات ثم أمطرتا نرجسا .

في مَقدمه من الرحلة الثانية شعر العبادي بميلاده الثاني. ميلاد يخرج فيه من مغارة نفسه الظالمة التي شكت في إخلاص الحبيب بعد عشرين عاما من اليقين. بكى يقبل مريم إلى أن عاد إليه قلبه القديم يشعر بأن ميلاده لا يخصه وحده. في ذاك الليل ولد العبادي ومريم من جديد، كأن العالم خلق لأجلهما ليفرحا بالولد البكر.

جلس على حافة السرير رأى الملائكة الصغيرة تحف بشير نائما كملك وديع. لا يتململ الولد في نومته العميقة. يبتسم للعبادي نائما. فتح فمه وأغلقه في لمحة عين خطافة .

اكتشف العبادي أن فرح الفقراء مثله يغمر الكون بالمحبة أن وجد وأن الإحساس بالأمان لا يخلقه إلا الشعور بالظل. الظل الذي يكون مجسما، له روح وجسد يتحديان فوضى العالم وتقلبات الأزمنة ومرارتها .

"هو بشير "

كلم مريم وكلم نفسه بصوت عالٍ.

أومأت برأسها ففهم أن الولد سُمي بشيرا في غيابه. كان متأكدا مما حدث فالعهد الذي قطعاه على الأنفس قبل ربع قرن لا ينصرم بعفوية. كانا يلعبان وقتذاك جوار النهر في موسم المطر. مريم تصنع طفلا من الطين، تضعه تحت الشمس ليجف، تحرقه بالنار، يصير ولدا من الفخار، يدهنه العبادي بالألوان الغريبة المضيئة. يحملان الولد الفخاري يسابقان به الزمن إلى البيوت القائمة اسفل المدينة الوليدة. يهتفان بصوت واحد: جاء بشير.

38

عشرون عاما لم يفقدا الأمل، لو مات الأمل مات الإنسان. حلم الطفولة يصير معجزة الحاضر يرسمان به سعادة الوجود ولذته المفقودة في زمن مضى. لا يوقن العبادي بالقول السائد أن السعادة هي المال، وبعد بشير زاد يقينه، حشد قلبه بدم الأوردة التي قالت له في الصباح أنت عشت بحب غريب يجتذبك للغد، أحسست بأن شعاع الشمس الصحراوية لا يمنح دفء الحياة فحسب، بل يبعث الناقة من مرقدها، ويحقق خفة الربيع.

في الفجر لبت مريم طلب العبادي، جهزت البخور خلسة. العيون الحمراء ترمي السرج من على ظهر النوق، وفي ذهن العبادي عيون أهل الهجانة تقلب مجن الكون .

قالت رابحة:

"ما شاء الله عليه"

كانت قد قرأت أفكار العبادي .

دخلت المظلة المعروشة بالقش، عادت بالبخور. قرأ العبادي سورة الإخلاص والمعوذتين وأختتم بسورة مريم المتعلق بها في حله وترحاله. رأي الشيخ سرور في الخلوة يعلمه يلقنه سورة مريم:

"أنت لم تخلق لهذا الزمان.. لكن المقادير لا تخطيء.. فإذا شعرت بالضيق فأقرأ سورة مريم"

يسمع كلمات سرور تدخها الأوردة في القلب. مع مريم الطاهرة العذراء يكون العبادي طاهرا، وينجو بشير من العين الحاسدة. مات الفجر فكان قلب بشير أنظف من الماء.

استيقظت الناقة في قلب العبادي كأنها لم تدخل غابة الموت من قبل. ولد الصباح في الهجانة يحرك أنامله في الجسد الصغير، هل كانت هذه الأنامل في جسد العبادي؟

الملامح تقول لزيس: "الولد يشبه أمه". والقلب يقول لمريم: "روح الولد تشبه روح أبيه". وفي اعتقاد القبيلة البكر إذا ما جاء ولدا يشابه أباه شكلا وأمه روحا. "إذا ما اختلفنا فهذا نذير شؤم."

خاف العبادي من كلام القلب، لم يخبر به مريم. وخافت مريم ولم تخبر العبادي، وفي الليل صلت فرأت أن معتقد القبيلة باطل، بشير سيصنع حلمه وحياته.

فرغت مريم من الصلاة بعد استيقاظ بشير باكيا. أسرعت بالبخور. نام الولد سريعا. لملمت أطراف اللحاف ورتبته. استيقظ الولد ثانية في ثالث يوم لعودة العبادي قبل أن تسأله مريم كم ربحت هذه المرة في الرحلة؟.

لم يكن السؤال يرد على ذهنها أبدا. الآن جاء وريث المال. إذا كان المال فتنة فالولد فتنة، لكن الفتنة بالفتنة تقاوم .

أعادت باقي البخور للمظلة المعروشة ونست التفكير في المال. خلعت ثوبها عند النهدين ترضع بشير في يقظته الثالثة.

دفتر الأحلام

1

تقطعت أسباب العيش دونما سبب، ارتفع في أول الفجر صوت المؤذن في زاوية البرهانية " حيّ على الفلاح "، كعادته والدي منذ أكثر من عشرة سنوات يؤدي الصبح حاضرا ويرتل صفحات من كتاب الله ، يبدأ يومه بفنجان القهوة الحار، جالسا على الكرسي القصير (البنبر) أمام مدخل المطبخ الصغير القائم في زاوية البيت الجنوبية الغربية ، يطالع في محفظة نقوده عله يجد فيها جنيهات من بقايا الأمس يشترى بها خضار اليوم ، .. ينادي أمي يقول لها :

"ما رأيك أن يتغدى الأولاد اليوم بملاح القرع ؟ "

تضحك أمي وتقول له :

"هذا ليس موسم القرع يا عبد الله أنسيت أننا في أول مواسم الدميرة "

ينتبه فجأة كأنما كان جالساً في مكان ثانٍ ، ويقول بصوته الخافت :

"نسيت والله يا أم على .. نسيت.

عندما ينتصف النهار تهرب العالمين إلى بيوت الطين تدس أنفسها من الحر ، يغلق السوق أبوابه ، وينام سائقو البكاسي داخل سياراتهم في انتظار رحلة ما بعد العصر ، لا تبصر شيئا في الطريق عدا بائعات الفول السوداني ، عائدات لتوهن من موقف المواصلات في انتظار رزق جديد في المساء ، كل شئ يغلفه السكون إلا طاحونة أولاد العوض فتظل تطحن في دقيق الذرة لا تتوقف ،

يقف مبارك فيها من أول الفجر حتى ما بعد العشاء لا يفتر ولا يكل ولا يمل ولا يتنفس الصعداء ، هذا الرجل كأنما ولد بلا أهات ، عندما يضيق به الحال ونادرا ما يحدث ، يبدأ في قزقزة التسالي ويلعب الورق مع نفسه حتى يفرغ غضبه الهادي ، ويدير الطاحونة من جديد.

في أول العصر لا أحد يهيم في بيوت الطين ، الكلّ يطارد في همومه صغيرة كانت أم كبيرة، عبد الرحمن الجعلي يقف أمام دكان الصادق مع رفاقه يراقبون العابرين ويعلقون بأصوات هامسة ، مزمل وحسين عمران ونصر الدين الغرباوي يذهبون إلى ملعب الكرة يحرزون الهدف تلو الهدف ويختلفون هل كانت هذه الكرة هدفا أم لا فالعارضات كانت بلا شباك ، محمد الشكينة لا يريد أن يسمع أحدا ولا أن يراه أحد ، يلوذ بنفسه وحيدا في صحراء العتامير باحثا عن الذهب مع الفرنسيين ، والفرنسيون أرحم بالنسبة له فهو لا يعرف لغتهم، وهم لا يريدون أن يكلمون أحدا منشغلين ليل نهار في عملهم ، تهبط الطائرات وترتفع ، ماذا تضع؟ وماذا تأخذ ؟ لا أحد يعلم ، حتى محمد الشكينة الذي ألف الحياة في مناطق التعدين لا يعرف شيئا ، ولم يكن مهتما بذلك كان فقط يحلم بأن يُحصّل في يوم ما ذهبا كثيرا كثيرا جدا ، يبنى به بيتا من الخرسانة المسلحة من طابقين في الخرطوم كما فعل أولاد عمه ، فهم لا يعتبرون أذكى منه ولا أشطر في الحياة ، فقد كان متفوقا عليهم أيام الدراسة في الأولية ، لكنه لم يستطيع أن يكمل دراسته لأن أبوه مات وترك له أخوانا صغارا عليه أن يرعاهم ، حتى الأخوان كبروا وتفرقوا في بلاد الدنيا العجيبة ولم يعدوا

يذكرونه ولو بمجرد خطاب يقرئ السلام لا غير ، وما حاجة المرء في الدنيا لإخوانه إن تصرّم حبل المودة والحنين ، .. كل شئ تغير في هذا الزمان ، لا أحد أصبح مهموما بأحد ، والأيام أصبحت تمر سراعا كالبرق ، لا طعم فيها تستلذه الأنفس ، أصبح كل شيء يمشي وحيدا..

في أول الليل يقوم عبد الله من على سجادة الصلاة بعد أن يصلى المغرب ويدعو الله أن يلطف في قضائه ، يدير موجة المذياع ، يستمع لأخبار البي بي سي من لندن ، لا أحد مثله خبير بشؤون العالم ، وتقلبات السياسة ، واتفاقيات السلام ، وكوارث الحروب والنازحين ، وجيوش الأمم المتحدة في شتى بقاع الدنيا ، والنزاعات الحدودية والإرهاب ، وتجار المافيا والمخدرات ، وملفات أسامة بن لادن ، .. وحين يجلس ليحاور أحد ما من أهل الهجانة بصوته الخافت يستمع له البقية دون أن يعارضونه أو يقولون له لا ..

حتى علي الأفندي الذي درس العلوم السياسية في جامعة الخرطوم ويعمل محررا سياسيا في صحيفة "سودانسكوب "، كان يندهش من قدرات عبد الله ، ويقول له وهو يقضى إجازته في الهجانة ، يا عبد الله أنت رجل غير عادي ، ..

لكن عبد الله لم يحصد من خبراته شيئا ، وما عاش إلا ليوم واحد سعد فيه حينما حاوره أحد مراسلي الصحف الأجنبية التي تصدر في أوروبا ، من أولئك الذين يأتون مع طائرات الفرنسيين ، وكان أن أرسل له المجلة بعد شهرين من الحوار ، عندما رأي عبد الله صورته على الغلاف بكى وجرت دموعه دون أن

يتحكم في هذا الأمر ، ولا يزال يحتفظ بهذا العدد يطالعه متى أحس بحاجة لأن يشرد قسوة الزمان ، رغم أنه لا يفهم في الكلام المكتوب عنه شيئا.

2

قبل الظهيرة تفتح العيادة أبوابها المصنعة من الحديد، تطل بطلائها الأزرق الباهت على موقف المواصلات المحلية التي تؤدي لأطراف المدينة والقرى المتناثرة في شكل شريط موازي للنهر، أصوات بائعات الشاي تضج بالمكان، فتيات يعبرن الشارع حديث السفلتة إلى منازلهن عائدات من المدارس، لا ينجون من مغازلات الصبية الجالسين في الظل وراء الحوائط الطينية التي تقوم ورائها غرفتا العيادة.

خصصت الغرفة الشرقية ذات السقف المنخفض لمراجعة المرضى وبها معمل صغير وراء ستارة رمادية اللون يجلس عنده رجل متوسط السن يؤدي عمله بإخلاص إذا كان هناك ثمة عمل ولكن منذ أن دخل الصيف الحار لا يوجد مرضى، رغم أن الصيف فصل الملاريا والأمراض المستوطنة، ولذا كان الرجل منشغلا بطقطقة أصابعه الصغيرة وحك جلده الخشن والتدخين أحيانا عندما يغلفه اليأس والقلق، يحن لأزمنة قديمة كانت فيها العيادة تعمر بالمرضى حتى أن الصالة التي كانت موجودة أمام الغرفتين تحتشد بالمراجعين، وقد هدمت مياه الخريف الصالة قبل عامين ولم يعاد بناؤها.

ما الذي تغير الآن، لم يكن يفكر في الأمر كثيرا فقد كان يقبض راتبه آخر الشهر وهذا ما يميز المؤجر الجديد للعيادة، ذلك الطبيب القادم من الخرطوم للعمل في الشمال، كان يراه رجلا طيبا مليئا بالشفقة على الآخرين، يعرف

كيف يعتني بمرضاه، لكن مصيبته أنه منذ حل هنا مع دخول الصيف لم يدخل العيادة إلا أفراد معدودين جاءوا من القرى الشمالية للمدينة. وفي بداية الأمر ظن أن الأمر طبيعيا سوف يتغير مع مرور الأيام، ففي العادة يحتاج الطبيب الجديد أن يتعرف الناس عليه، لكن الأمور سارت على ما هي عليه بل ازدادت سوءا بتقدم الزمن، وفي الماضي كان الناس يقدرون الأطباء الذين يأتون من الحضر ويبدو أن هذا التقدير لأطباء الحضر قد زال، فكر في الأمر، وكعادته جلس يواصل طقطقة الأصابع دون أن يشغل باله كثيرا، لم يكن يسمع أو يتكلم، فقد هاتين الحاستين منذ الطفولة الباكرة بسبب التهاب السحائي، لم تكن التطعيمات الوقائية معروفة في تلك الأيام، وواصل تعليمه رغم ذلك الفقد، ولم يستمر طويلا، ولكي يجيد عملا ينفعه في المستقبل جاء به والده إلى العيادة ليتعلم فحص الدم والبول، فأغلب أمراض الناس هنا كان لابد من معرفتها عبر فحص البول والدم، وأجاد التعلم، وخلال السنوات العشر من قدومه كمتدرب في العيادة عرف سر المهنة وبرع فيه، وعاصر أكثر من عشرة أطباء تعاقبوا على العيادة الخاصة ، وشفعت له كفاءته بأن يظل في عمله دون الاستغناء عنه، أحيانا كانت الشفقة هي التي جعلته يبقى، خاصة في عهد الطبيب حسان البصري الذي جاء لشهر واحد ومضى، وقد ذهب سريعا لأنه اختلف مع المستشفى المركزي في المدينة الذي لم تكن إدارته تحب الثرثرة ضد قوانينها وأنظمتها التي لم تعجب البصري، وكان البصري رجلا اشتراكيا متزمتا ينتقد أوضاع التعامل مع مرضى الريف البائسين، وامتدت انتقاداته للأجهزة المستخدمة في المستشفى، كونها قديمة وغير عصرية، وقام

بتأجير العيادة الخاصة ظنا منه أنه سينجح في استقطاب المرضى من المستشفى المركزي مؤمنا بكفاءته المعروفة في البلاد، وقد وضع خطة محكمة للعمل واستيراد أجهزة حديثة، لكن أمره لم يستمر أكثر من شهر فقد عاد ذات يوم إلى الخرطوم دون أن يعود مرة أخرى .

كان البصري قد وجها انتقادات حادة للمرضي الأصم الأبكم، ووصفه بأنه واحد من علات العيادة، وفكر فيما فكر من تحديثات أن يستغني عنه ليستبدله بفتاة حديثة التخرج، من الأسر البسيطة متواضعة الحال في المدينة، لكن الشفقة المغروسة في قلبه جعلته يتراجع عن قراره ليواصل المرضي عمله، وانتهى الشهر لينتهي كل شئ.

مرت أربع سنوات وجاء محمود عبد المنعم الطبيب الجديد للعيادة مع مدخل الصيف، دخل في أول يوم يحمل رزمة من الأوراق وحقيبة جلدية قديمة وبخاخة، سلم على المرضي كأنه يعرفه منذ زمان بعيد، لم يكن يعرف أن الرجل لا يسمع ولا يتكلم، لكنه أدرك أن ذلك سريعا، عندما رأى يداه تعملان بشكل عجيب في ابتكار المعاني، جلس على مكتبه في الغرفة الغربية، ولم يجلس طويلا حتى قام يبحث عن شئ مفقود، تحرك هنا وهناك في فراغ حوش العيادة، لكنه لم يعرف مكان الحمام، كان البول يعتصره، دخل وراء الستارة الرمادية وأشار إلى موضع عضوه الذكري موحيا للمرضي بأنه يريد أن يتبول، عرف المرضي مراده فأخذه إلى الحمام القائم وراء الغرفتين في ركن قصي بلا بوابة، عبارة عن فتحة دائرية أسفلها حفرة كادت أن تمتلئ بالفضلات

البشرية، تفوح منها رائحة كريهة ويحوم حولها الذباب، دخل الرجل وتبول واقفا، وهو يراقب المدخل، وانتهى من البول سريعا، بعد أن رسم خطوطا متقاطعة على الأرض في شكل مثلثات، في طفولته كان مغرما برسم أشكال هندسية في الحمام برشاش البول، وقد نسي هذه العادة منذ سنوات بعيدة، لكنه عاد لتذكرها اليوم، عندما وجد حماما يشابه حمام منزلهم العتيق في أيام نشأته الأولى.

ما أن خرج من الحمام وجلس قليلا إلا وعاد إليه، تكرر ذلك لأكثر من خمس مرات خلال ساعة واحدة في ظهيرة قائظة، وبين عودة وأخرى كان يقلب أوراقه الكثيرة، يفتح الحقيبة الجلدية ويغلقها، يستخرج أوراقا، يكتب عليها بخط عريض جميل بقلم سائل، لا يشطب إلا نادرا، كان يكتب شعرا، وكتب في تلك الظهيرة عن المدينة الجديدة التي جاء إليها قبل يومين ليعمل بها مديرا للمستشفى المركزي، قال إنها تشبه مدن البربر في صحراء الجزائر، وهو لم يرى الجزائر، ولا يعرف شيئا كبيرا عن البربر، واسترسل في القصيدة.

لم يكن يدخن أو يحب المدخنين ولذا عندما رأي المرضي يحمل السيجارة في المعمل وراء الستارة من خلال النافذة الخشبية المفتوحة في الغرفة المطلة تجاه الحمام، حرك أصابع يده من وراء فتحة الحمام في إشارة للرجل بأن التدخين ممنوع داخل المعمل، في حين كان يمسك بيده الأخرى عضوه الذكري مفرغا البول في خطوط هندسية أنيقة خارج فتحة الحفرة، وخلال أيام لم يعد يحفل بالمرضي إن كان موجودا أم لا، هل كان يدخن أم لا، انشغل

بأوراقه وقصائده، وعادة التبول الكثير، وكان يقضى معظم النهار في العيادة، يخرج منها قبل العصر إلى المبنى الحكومي وراء المستشفى حيث سكنه كمدير ، أما المستشفى فقد كان يدخلها في أول الصباح الباكر، ويخرج منها قبل الإفطار في التاسعة صباحا، ويعود لها بعد أن يتناول الغداء في السكن الحكومي.

3

كان مبنى المستشفى المركزي ضخما بُني أيام الحكم الإنجليزي في منتصف القرن الماضي، ويتكون من عدد من الغرف المتلاصقة الواسعة ذات السقوف المائلة المشابهة لبيوت الريف البريطاني، وقبل سنوات كان نظيفا من النادر أن تجد فيه حشرة زاحفة أو طائرة، وقد تغير هذا الوضع الآن، حيث أصبح المبنى مرتعا للحشرات والزواحف بشتى أنواعها، ولم يتبق به غير ثلاثة أطباء كبار السن يقضون معظم النهار في الثرثرة داخل غرفة الإدارة المجاورة لغرفة المدير، كان لكل طبيب طاولة خشبية تآكلت أطرافها وبهت طلاءها، وليس من أمل في إعادة الطلاء، أو استبدال الطاولات بعد أن أصبحت المستشفى بلا ميزانية في ظل الظروف الاقتصادية الحرجة التي تمر بها البلاد، والمدراء الذين يأتون سرعان ما يذهبون حيث لا يحتملون البقاء في هذا الوضع السيئ.

تقع المستشفى في الناحية الجنوبية الشرقية من المدينة، تحيط بها من ثلاث اتجاهات عدا الشرق مبان قديمة للمدارس المتوسطة للأولاد والبنات، ويقع غرب المدارس مبنى محطة السكة حديد الذي وصل عمره لأكثر من قرن، وكان قد بني أثناء حملة كتشنر على السودان، عندما مد الخطوط الحديدية تسهيلا لنقل العتاد والأسلحة. شرق المستشفى تقع المقابر الجديدة للمدينة، والتي لم تعد تستقبل أعدادا كبيرة من الموتى، ليس بسبب أن الموت توقف،

ولكن لأن معظم سكان المدينة هاجروا إلى الخرطوم أو خارج البلاد يبحثون عن رزق متسع، بعد أن ضاقت الأحوال بهم، وعسرت سبل الحياة هنا.

جاء محمود عبد المنعم منقولا من الخرطوم إلى المستشفى كنوع من الانتقام منه، من قبل الوزارة المركزية عندما يغضب رجالها على طبيب ما، تكون عقوبته بالنفي للأماكن النائية، ولم يمانع محمود فقد نفذ أمر النقل استعدادا لاستقبال حياة جديدة في المدينة المطلة على النهر المتجه من الجنوب إلى الشمال مخترقا الصحراء إلى مصر.

وفي الوقت الذي كان فيه رجال الوزارة المركزية يظنون أنهم عاقبوا الرجل على كثير من معارضاته لأنظمة ولوائح العمل في الخرطوم، كان في قرارة نفسه سعيدا بأنه تخلص من مدينة تضج بالفوضى، ومضيعة الوقت في ملاحقة المواصلات العامة، والقهر المتواصل، وانتشال المال من الجيب بلا مقابل، ورأى في نقله عن هذا الجو إلى مدينة على مشارف الصحراء فرصة لا تعوض لزمن الإبداع الذي انتظره طويلا، حيث سيتاح له مواصلة مشواره الشعري بإنتاج العديد من الدواوين الشعرية المميزة، وبالفعل وقبل أن يأخذه القطار إلى الشمال بدأ في اختيار عناوين دواوينه القادمة والتي لابد أن ترتبط أسماؤها بالمكان الجديد، وأن تمزج بين الصحراء والنهر.

دخل المستشفى في أول يوم له مسلما على الأطباء الجالسين بلا عمل، لم يطلب منهم اجتماعا مستعجلا كما اعتاد أن يفعل كل مدير جديد يأتي للمستشفى، ولم يسألهم عن الأحوال ، قدموا له القهوة فأعتذر عن شرابها

وكان في ذهنه أن القهوة تعيق المخيلة الشعرية، وعلى الشعراء الناجين أن يبتعدوا عن احتساءها، وفي حياته ومنذ سنوات ابتعد عن المكيفات والمنبهات، كان في فترة ما مدخنا شرها، وعاشقا للقهوة يؤمن بأن القصيدة العصماء لا تخرج إلا ما بين دخان السيجارة ورائحة القهوة الحبشية الأصيلة، لكنه عندما أكتشف أنه شاعر بلا هذا الإضافات الفارغة، تركها وتفرغ لكتابة الشعر بحرية فعلى الشاعر الناجح أن يكون حرا لا يقيده شئ ما حتى لو سجارة تستفزه ليخرج الكلمات المؤنقة، وكان يغضب للذين يرددون بأن عصر الشعر قد انتهى وولد عصر الرواية أو القصة، يرد عليهم بصوته الخافض المهذب قائلا : " إن الخيال هو الذي نضب عندكم.. ولا شعر بلا خيال."

كانت مفردة خيال من المفردات التي يكثر تردادها دون أن يدرك لها معنى معين، وقد استعان بعدد من خبراء اللغة لكنه لم يقتنع بما قالوا فقد كانوا في نظره أصحاب رؤية كلاسيكية في فهم الأشياء، وكان دوما يكتفي بالتعريفات الخاصة به لكل كلمة ولكل شئ في الحياة، مؤمنا بأنه على كل إنسان أن يفهم العالم على طريقته الخاصة التي تريحه، وليس من حق أحد مهما بلغ من الشأن أن يقهر الآخرين لإتباع منهجه أو فهمه، وقد أيقن أن الكثير من الأشياء في العالم لم تولد بعد، وعندما يأت أوان ولادتها العسيرة في مجتمعات غير مثقفة فإنه من الصعب التعايش مع الجديد.

درس الطب النفسي في القاهرة قبل خمس وثلاثين عاما، لكنه مارس كل فنون الطب من خلع الأضراس إلى جراحة العظام والأعصاب، وكان يرى في مهنة

الطب نوعا من العلاقة بالشعر، ولكن إخفاقا ته المتكررة جعلته طبيبا غير موفق، وقد فقد مكانته بسرعة بين زملائه في الخرطوم الذين كانوا يرون فيه رجلا خارجا عن المألوف، وحاول البعض منهم تقديم النصائح المغلفة بالغيرة والحسد أحيانا له، بيد أن رفض تغيير الحياة كما عهدها وأحبها، لم يكن يرى أن الآخرين مخطئين، لكنه ليس على أية حال مخطئا، وظل على هذا الاعتقاد ولم يتخلص منه حتى الآن بعد أن قدم كمدير للمستشفى المركزي في مدينتنا.

4

كنت في تلك الفترة قد عدت في إحدى عطلاتي السنوية من الخرطوم حيث أدرس في الجامعة، ولأنني كنت أدرس طبّ المعامل فقد تعرفت على محمود عبد المنعم في العيادة الوحيدة في مدينتا، وكان مطلوبا منا من قبل إدارة الكلية أن نقضي العطلة في التدرب على عمل المعامل، ولأنني لم أتعود على الخرطوم بعد حيث جئتها قبل عامين، فقد فضلت أن أتدرب في العيادة الخاصة الوحيدة في مدينتنا، بدلا من بقائي في الخرطوم لهذا الغرض.

دخلت في نهار قائظ العيادة فوجدت المرضي جالسا وراء الستارة يحتسي كوب قهوة، أشرت عليه بيدي ومازحته بموجة من الحركات البهلوانية المتعارفة بينا منذ زمن، وسألته بالإشارة عن الطبيب فأشار لي للغرفة المجاورة للمعمل، دخلت بهدوء، وجدت أمامي رجلا ضخم الجثة، قصير القامة، حليق اللحية والشارب، أصلع الرأس من المقدمة، فُتحت أزرة قميصه إلى الوسط، فبانت معالم صدره المغرق بغابة من الشعر الأسود الكثيف، كان من وراء نظارته الداكنة العريضة محدقا في مجموعة من الأوراق، يتهجأ الكلمات بصوت مرتفع، كأنه يحدث شبحا في المكان يجلس إلى جواره، لم يكن هناك أحد في الغرفة غيره وأنا، وقفت للحظات انتظر أن يرفع رأسه عن الورق المتناثر حوله لأسلم عليه، لكن يبدو أن انتظاري سيطول لو ظللت على هذا الوضع، بادرت بأن أجره بالسلام عليه، لكنه لم يرفع رأسه أبدا، رددت السلام وبصوت أعلى

أكثر من مرة، كنت كمن يصرخ في واد عميق لا يسمع سوى صدى صوته يرتد من الجبال الشامخة، كان صوتي يضرب بالحائط ويعود، اقتربت من الرجل أكثر فأكثر ، كان يكتب شعرا وكنت أعشق كتابة الشعر.

فكرت أن أقاطعه لكنني قلت لنفسي :

"لا بد من الانتظار حتى لا أقطع عليه توارد خواطره.."

قام بعد دقائق من الكرسي البلاستيكي يحمل القلم السائل مفتوحا، وخرج من أمامي ينظر في سقف الغرفة تارة وعلى الأرض تارة وهو يتمتم، وكأنني لم اكن موجودا في المكان، وتساءلت :

"أين يعيش الرجل ؟ "

عاد بعد لحظات من خروجه من الغرفة، وقد تناثر رزاز سائل على بنطاله أعلى الركبتين، ويبدو أنه عاد من الحمام،.. فجأة وهو جالس انتبه إلى أن هناك شخص ما يقف وسط الغرفة، قام من مكانه مرتعبا، ليحييني ويعتذر لي بأدب جم وكلمات شاعرية، وقال لي : "أجلس"، دون أن يتعرف عليّ من أكون، وواصل الكتابة، حتى أني مللت من الجلوس، وبعد دقائق رفع رأسه من على الورق، وضع القلم جانبا، وقال لي :

"هل تشكو من شيء ما ؟."

كان يسألني وهو يفتح أحد الأدراج على يمينه، مخرجا السماعة الطبية، وجدت أنني أضحك بشكل غير لائق، فقد حسب الرجل أنني مريضا جاء للعلاج، وتماسكت فجأة، حين شعرت بأن ملامح وجهه المستدير تغيرت، لم يتفوه بكلمة، وتعرفت من تفاصيل الوجه أنه لم يكن راضيا على الطريقة التي ضحكت بها.

5

رأيته من ثقب الباب دخل على عجل يصافح النساء الجالسات في الظل يخيطن الطواقي، ساومهن في السعر، كن قنوعات لم يتعرفن على الجشع، وكان تاجرا يعرف كيف يساوم ويصل إلى مراده، أقنعهن بأن سوق الطواقي كاسد هذه الأيام، ملأ القفة التي كان يحملها بطواقي بيضاء وحمراء، وخرج.

لم يلبس طاقية في حياته، لكن اشترى وباع فيها، بنى منها بيتن، وزوج بناته السبعة، رزق منهن بخمسين حفيدا، لكن أحفاده لم يلبسوا الطواقي مثله، كانت لهم أجساد طويلة وبطون ممتلئة، وأنوف زنجية مميزة، وكانوا يحبون أن ينادوهم بأحفاد السيد. لم يكن سيدا على أحد، كان ذلك اسمه، سمته به ميمونة، تربى في بيتها ووسط أولادها العشرة، كانت تناديه ولدي، ويناديها يمه، لم تكن أمه، ولم يكن ولدها.

أكتشف أن أهل الحي لا يعدونه ولدا لميمونة، عندما بلغ سن العاشرة، كانوا يقولون أولاد ميمونة الرطانة جاءوا حسن وحسنين، صالح وصالحين، مبروك ومبارك، سمارة وسمري، حمد وحمدتو، عندما يرونهم خارجين من جنينة أبوهم إلى الخلاء، وكان يسير ورائهم مثل الظل، يلتفت فيلتفتون، يضحك فيضحكون، حتى لو أنه لم يعرف سبب ضحكهم، وكان أكثر ما يضحكون عليه.

الذي يضحك أخيرا، يضحك كثيرا، نجح في الحياة، وفشل أولاد ميمونة العشرة، الذي تفرقت بهم سبل الحياة في بلاد الله الواسعة.

عثرت عليه ميمونة في المتره في ضحى حار ، كانت تنشل الماء لتسقي الزرع في الجنينة، بعد أن توقف الوابور، رفعت الدلو، فخرج منه طفل رضيع، أسمر، عاري، صرخت لهول المفاجأة، وعجزت عن الكلام لأيام، حتى حسبها الناس أنها جنت، لكنها استعادت عافيتها بعد شهر مع دخول موسم المطر.

عندما بلغ العاشرة أخذته ميمونة إلى الفكي المرضي تحلق له شعره، كان الشعر قد استطال، وصل إلى ركبتيه، ولم يكن قد حُلق منذ ميلاده من أم مجهولة، وقد تأخر حلاقته عشرة سنوات لسر كانت ميمونة قد أدركته وحدها لم تخبر به أحدا من العالمين.

حتى ذلك التاريخ كانت أمه، لكنه في ذلك اليوم أدرك الحقيقة، عندما قال له الفكي المرضي:" يا ود الحرام، أقعد ساكت".. قال العبارة بعد أن تمايل السيد مع المقص العجوز بعد أن خدشه خدشين على رقبته الطويلة، كان أشبه بمنجل أو منشار، يجز به الفكي الشعر كما يُجز شعر البهائم.

رجع إلى البيت معها، كان يبكي، ويناديها يمه، رفض الكلام والطعام، وعاف النوم في ذلك الليل، وحلم بسيدة طويلة العنق تحمله وتقول له :" يا السيد.. سيد البحر والبر .. زمنك جاي .. أضحك في وش الغشيم."

استيقظ ضاحكا، ومنذ ذلك اليوم كان يتندر على نفسه وسط رفاقه، بدلا من أن يغضب، يقول لهم:

"ود الحرام جاكم.

كان يعمل مع أولاد ميمونة في الجنينة من الصباح حتى المساء، لا يكل ولا يمل، يعمل بقدرة عشرة رجال، يعرق، لا يمسح عرقه، يحبس بوله حتى آخر الليل، يرفع الطورية، وينزلها، يدق الأرض حتى لكأنها تئن، يتوقف أحيانا من العمل، ليقول:

"آه يا السيد"

ويواصل مشواره من جديد.

6

قبل أن يعبئ الليل جعبته بالسكون أغلقت الدكاكين أبوابها في سوق الرميلة، كانت الساعة الثامنة مساء عرفنا ذلك من رنين ساعة بيج بينج من إذاعة لندن في دكان ود الخضر الذي كان يغلق متأخرا بعد أن تأتي دورية الليل وتأمره أمرا بأن يذهب لعياله. كنّا أنا وحسن ود العريف مأمون عائدين للبيوت من مذاكرة الليل في المدرسة الثانوية ومررنا على السوق نشترى حلوى، وقد أدركنا كشك الباسطة(الحلوى) قبل أن يغلق وأكلنا بنهم، وكان أن داعبنا محمود صاحب المحل بالقول :

"أين تفرغون هذه الطاقات يا مجانين، هل تذهبون بها في بالوعات الحمامات؟."

قبل أن نغادر السوق مررنا على كشك ود المكي اشترينا سيجارة واحدة أشعلناها بحذر وراء الكشك وتبادلنا أنفاسها نخبئها وراء الظهور حتى لا يرانا أحد الحمالين للكلام وما أكثرهم في الرميلة. كان حسن يعاني من وعكة بسبب البرد لكنه لم يقلع عن التدخين، وقد نصحته فأبى، وقال لي وهو ينفث الدخان :

"لقد كان محمد السناري حزينا اليوم ."

"نعم لم يكن على عادته مرحا بشوشا "

ضحكنا وأكملنا طريقنا تجاه البيوت، كانت عواصف الليل الترابية قد بدأت والبرد اتسعت دائرة قواه في استفزاز أجسادنا الضعيفة.

قابلنا في الطريق حسين ود عربة يحك رأسه كما تعود وسألنا :

"ما الخبر ؟ .. "

قلنا له بصوت واحد:

" لا شيء .. "

صمت لحظة وتكلم كأنه يسألنا من جديد :

"ألم تسمعوا بالخبر؟ .."

استغربنا طريقته في الكلام قلنا له :

"أي خبر يا ولد ؟."

كان أن ضحك حسين ولف لفتين حول نفسه وحك رأسه مرة أخرى ومرات ثم قال لنا :

"أعطوني سيجارة أكلمكما"

لم يتحمل حسن هذا الاستفزاز والانتهازية فقال له بغضب :

"ليس معنا سجائر"

كان أن أسرعت بتهدئة الموقف وقلت لحسين :

"ليس معنا جنيهات .. لقد اشترينا سيجارة واحدة وتقاسمناها ثم أطفأناها بعد الفراغ منها على الأرض وراء كشك ود المكي ."

لم يكتف حسين بالسؤال عن السجائر فقال لنا:

"إذن أعطوني صعوتا .. "

تحسس ود العريف جيبه، مثلما تحسست جيبي فلم أجد شيئا، لكن حسن أخرج كيس النايلون وقال وهو يقدمه لحسين:

"خذ سف .. سجم أمك."

جلسنا على الأرض تحت عمود الإنارة وحدثنا حسين ابن عربة بالخبر الذي ما كنا نتوقعه أبدا، وكان أن تأففنا مرة ومرات ونحن نسمع الرواية من حسين بعد أن وضع سفة محترمة وراء خده الأيسر .

قال حسن مستغربا :

"هل معقول أن أبوه مات مقتولا ؟ .. "

كانت ردة الفعل لحسين كما نعرفها أنه انتفض كمن أهينت كرامته مرة في العمر وقال بغضب مفتعل :

"لقد فتحوا بلاغا في مركز البوليس وقد أخبرني عمر ابن خالتي بذلك .."

كان عمر ابن خالته يعمل محققا في المركز.

وسألت حسين :

"ولكن هل عرفوا من قتل الرجل؟ .."

حسين أجابني بالإجابة المتوقعة :

"الله أعلم ."

واستطرد يقول :

"لكن عمر قال لي إن الجثة وجدت وراء بيتهم في زقاق وكانت مغطاة بالطين."

وبدر إليّ سؤال :

"لماذا لم نعرف بالأمر من الظهر "

فسألت حسين، كنت أدرك أنه لا يعرف الجواب، لكن عسى ولعل أن يكون يحمل فكرة ما تقرب منه، فقد كان حسين في أحيان كثيرة يبتكر أفكارا تقرب من حقائق الأشياء وكنا نسميه بعبقري الرميلة، ثم أنني أفهم جيدا أن الله قد يضع السر في أضعف العالمين.

كان أن اعتدل حسين في جلسته وقال لي وهو يمتلئ زهوا :

"المحافظ عندما أبلغوه بالخبر قبل أن يذاع في البلد، أمر بقفل الملف، وأن لا يتكلم أحد عن الأمر وإلا عوقب على كلامه، وأمر بأن يدفن الرجل وكأنه مات موتا طبيعيا ."

وقال لنا :

"محمد نفسه لا يعرف ما حدث لأبيه ."

وكان أن أصابتنا الدهشة ونحن نسمع الكلام الأخير، وتجمدنا للحظات محاصرين بالخوف، بعدها قال ود العريف معلقا :

"ربما حدث شيء ما له مع الدولة .. "!

ويبدو أن حسن قال هذا الكلام ولا يعرف مدلولاته، لكن الأيام كانت تخبئ المزيد، وقد كشفت أن تصرف المحافظ كان شيئا من هذا القبيل، لم يكن قراره عشوائيا، بل كان مدروسا ومحكما ففي تلك الأيام كانت ثمة تحولات تحدث في الحياة من حولنا دون أن ندرك مغزاها، وكنا صغارا لا نفهم ألغاز الكبار القذرة.

وكانت ثمة أسرار تتحرك في الخفاء وتشكل ملامح الحياة في الرميلة، وكانت أسلحة تدخل البلد وتخرج، واجتماعات سرية تنظم وتنفض، ويبدو أن أمرا ما سيقع في القريب العاجل ليغير الكثير من مجريات الحياة والروتين، لكننا كنا أصغر من أن نفهم ونستوعب كل هذه المتاهات.

7

تقع مدينتي على بوابة الصحراء، ومن هناك جاء أجدادي القدماء، يحلمون بتغيير العالم هنا لكن أمراً جديداً لم يحدث. يسكن بيتنا أسفل المدينة ويبعد عن النهر كيلومترين، تقوم فيهما مساحات خضراء ما بعد الفيضان كل عام لكن هذا الموسم كان من مواسم القحط وكانت ثمة أشياء كثيرة تحاصر وجودنا البسيط دون أن يكون لنا قدرة على مقاومتها، فالإنسان لا يستطيع أن يكون أكثر مما كان وأكبر من قدرته المحدودة.

في ذلك الصيف البعيد، جاءتنا آمنة بنت عمران، لكنها لم تقم معنا طويلا، كانت زياراتها في العادة مستعجلة وفي ذهنها مخططات أكبر من الزمن، وكنّت ما أزال طفلا واستيعابي للحياة لم يُولد بعد. لكن مجيء آمنة خلّف في ذاكرتي ذكريات عديدة لأزمنة لن أنساها أبداً، سألتني عند حافة النهر :

"هل تعرف أن تسبح يا بشير؟."

أومأت لها بأنني لا أعرف السباحة، وربما كانت تدرك سبب جهلي، لهذا لم تكرر السؤال. لكنني خجلت فكل الأولاد في مثل سني يعرفون عبور النهر حتى في مواسم الدميرة، كان أن تغيرت ملامح وجهي الصغير، ودخلت في نوبة من البكاء في حين كانت آمنة تتوضأ بماء النهر الدافئ. فرغت من الوضوء، حملتني على جنبها وانطلقت بي إلى البيت الطيني، حيث أسكن مع أُمي، بعد أن خرج أبي في إحدى رحلاته للعتامير البعيدة، يبحث عن دروب جديدة للتجارة. لأمر

مجهول بالنسبة لي كانت مواسم القحط تأتِ مع مقدم آمنة، لهذا بدا لي وجهها يشبه طين الجروف المشقق لغياب الماء عنه، ولا أتذكر الآن، كم كان عمري بالضبط عندما جاءتنا آمنة لأخر مرة.

دخلنا البيت، كانت أمي قد فرغت من إعداد الإفطار، صنعت لنا في ذلك الصباح مائدة عُمرت بشتى ألوان الطعام، ويحدث هذا نادراً أن يكون في مائدة بيتنا أكثر من صنف، فنحن أسرة فقيرة، لكن إكرام الضيف واجب، هكذا تعلمت من أمي، وكانت تقول لي دائماً، " لا تكرر الأسئلة أمام الغرباء". جلسنا نأكل على الأرض، كنت أمد يدي نحو صحن ما، فتحولها أمي تجاه آخر، خلسة، قبل أن ترى آمنة ذلك، وفي إحدى المرات رأتنا آمنة، فقالت لأمي: دعيه، فهو ما يزال طفلاً لا يفرق بين الحلو والمر. وبدأت أحاديث طويلة استمرت بعد الإفطار إلى ما قبل قيلولة الظهيرة عندما قمت لأصلي الظهر مع أمي،كانت آمنة راقدة مستيقظة، ولم تقم للصلاة، وكنت أود أن أسأل أمي:

"لماذا لا تصلي هذه العجوز ؟."

تذكرت نصيحة أمي بعدم السؤال فسكت. كانت أمي تحب الضيوف وتبالغ في إكرامهم، لكنها كانت تتذمر عندما تهجع للنوم، أو بعد أن يرحل الضيف، ويحدث هذا عندما يكون أبي موجودا في البيت، حيث يبدأ بينهما حواراً لا ينته إلا قبل الفجر، يقوم بعده أبي للصلاة، وتلاوة القران، في ذلك المساء سألت أمي :

"من تكون آمنة ؟. هل هي عمتي؟."

ضحكت أمي، ضربت بيدها اليمنى على رأسي، ضمتني إليها في شفقة تقول :

"أي آمنة يا ولد؟ ."

قلت لها :

"هذه العجوز التي تنام في الحجرة الثاني؟ ."

استغربت أمي فليس في بيتنا غير حجرة واحدة. بالفعل كان في بيتنا حجرة واحدة ننام فيها أنا وأمي وأبي، وغالبا ما ننام أنا وأمي، فأبي لا يعود الآن، دائماً ما يكون مشغولا في رحلات القوافل التجارية مع تجار العتامير.

8

استيقظت في الصباح، شربت الشاي مع أمي في المطبخ الصغير في حوش بيتنا، كانت رياح الشمال القاسية تضرب النوافذ الخشبية المهترئة كأنها تكلمها، وكان ذلك الصباح المشرق رغم العواصف يشبه صباحات الجنة، لم يكن لي عمل محدد أقوم به في حين انشغلت أُمي بترتيب بيتنا الصغير كعادتها كل صباح، حدثتني أن العيد قادم على الأبواب، وعليّ أن أكون ولداً هادئاً، كي أفوز بهدية منها في العيد، فطلبت منها راديو. كان في حينا راديو واحد عند الجيران، وعندما نزورهم يضعونه على طاولة عالية أمامنا، ويصعد أولادهم أعلى سطح البيت ليصلحون الإرسال، ومنه ينبعث صوت غناء، كأنه يأتِ من عمق النهر أو الصحراء. قالت لي أمي: سأشترِي لك كراسة وقلم، آلا تريد أن تكتب شعراً كما قلت بالأمس.

كان أبي يجيد نظم الشعر، لكنه لا يكتبه، وغالبا ما ينشد لصحراء العتامير والرجال الذين ماتوا فيها يبحثون عن الرزق في دروب الحياة الوعرة، ويكتب للنهر والنخيل في أحيان أخرى، لهذا أحببت الشعر وفي ليالي بقائه معنا كان يسمعني قصصاً وأشعاراً عن موسى ود حجل وعرب العبابدة وأبي زيد الهلالي، وكانت ذاكرتي قوية في حفظ الأشعار، ويبدو أنني سأصبح شاعرا عندما أكبر. قلت لأمي: لكنني لم أتعلم الكتابة، بعد. فذكرتني أنني سأدخل المدرسة بعد العيد .

كان دخولي للمدرسة يعني أنني بلغت سن السادسة وربما السابعة. وجاء العيد سريعاً لأجد نفسي في الفصل مع أولاد الحي وآخرين لم أتعرف عليهم من قبل، ومضت السنوات سريعا تقصم ظهور بعضها بعضا في حين كانت الأقدار ترتب أشياء جديدة لعالمنا لم نكن نتوقعها. كانت مدينتنا الصغيرة تكبر يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ولا أدري هل كانت تكبر فعلاً أم أنني كنت أكبر فأفهم الحياة كما ينبغي أن تفهم للكبار؟!. وكلما زدت عاماً رأيت أن الحياة لا تطاق وأن العالم يصبح أصغر في ذهني بسخافته بدلاً من أن يكبر بحلمه. كنت في كل مرة يحاصرني فيها اليأس أتذكر آمنة بنت عمران، أراها حقيقة في حين يصعب لأمي وأبي أن يتذكرون امرأة بهذا الشكل الذي أحكي عنه .

هل كنت أسير بلا هدف بعد أن ترك أبي السير في دروب الصحارى واستقر به المقام أخيراً في دكانة صغيرة عند ناصية من نواصي الحي وأنا أقضي موسم الإجازة معه أشغل نفسي بترتيب البضائع في رفوف الدكان بعد أن تحققت أمنية طفولتي بجهاز راديو ضخم في الدكان يشغله أبي في الصباح الباكر لا يوقفه إلا عند الليل عندما نغادر الدكان عائدين للبيت. لربما كنت أسير بلا هدف فقد كانت دروب الحياة تسير في مزلقانات خطرة وسنوات القحط تتجدد والأيام تكتسي بالوجع، وكان عقلي يكبر سريعاً عاجزاً عن فهم الأشياء من حوله، كانت أسئلتي المتكررة لا تجد إجابات.

9

سماني أبي بشير، وغالبا ما يسمون الابن البكر في مدينتنا بهذا الاسم، تيمناً بالرسول (ص) ويسمون البنت البكر مكة تيمنا بمدينة ميلاد الرسول. وقد انتظرت أمي ميلاد مكة طويلا، لم تترك رجلا صالحا في منطقتنا إلا زارته لهذا الغرض، وكان أن كثرت وعود الرجال الصالحين لكنها لم تفِ إلا متأخرا في نهار شتوي بارد عندما ذهبنا سويا إلى مزار سيدي الحسن المدفون في كسلا وتبركنا بالثرى الطيب، لنعود آخر النهار للبيت . لم تخبر أمي أبي بالأمر فقد كان لا يحب زيارة المقابر والتبرك بالأموات، ولم يكن ينتمي للطرق الصوفية التي تملأ البلد، كانت طريقته الوحيدة أن يُصلِ ويقرأ القران في الفجر، ولم يكن يخاف على دروب الرزق فالرزق آتٍ للعالمين مهما فعلوا كان يقول ذلك لأمي عندما تشكو حال الدنيا.

في ذلك النهار وجدت أمي تشرب شراباً غريباً مزجت فيه أعشاب متنوعة، كنت قد دخلت عليها دون أن تراني في المطبخ وعندما رأتني ارتجفت يداها، وسقط الكوب على الأرض، شعرت كأنني ارتكبت جُرماً ما وشرعت في البكاء، سارعت باحتضاني تقول لي: لا تبك سأُعد كوباً غيره. وأعدت كوبا جديدا ثم قالت لي: أشرب. شربت شيئا لذيذا لم أتذوق مثله من قبل وسألتها: ماذا يسمى هذا؟.

حكت لي أنه بعد عودتنا في الظهيرة من سيدي الحسن، وبعد أن استيقظت من نومة القيلولة تذكرت أنها حلمت في نومتها، رأت رجلا طويل القامة يكاد

يلامس عنان السماء وإلى جواره تقف بنت صغيرة أقصر منه بقليل، كان ذلك الرجل هو أنا، وكانت تلك البنت هي أختي مكة التي ولدت بعد تسع أشهر بالضبط من الآن. الحكاية كما روتها .. أن (بشير ومكة) حملهما كائن ضخم بأجنحة عظيمة وانطلق بهما إلى هناك، إلى مدن بعمارات شامخة مغفلة بالزجاج وطرق معبدة وشاشات بلورية تعكس صورا لنساء عاريات- خجلت – لكن أمي علمتني في ذلك اليوم أنني كبرت ويجب أن لا أخجل من ذكر النساء. أوصاها الكائن الضخم الشفاف بأن تعد كوباً من أعشاب السنمكة وورق السبانخ مع عصير المانجو وتشربه بعد أن تقرأ عله تعاويذ حفظتها عن ظهر قلب من العملاق وقال لها : يجب أن لا يعرف العبادي الأمر.

في المساء كنت قد حكيت لأبي كل شيء عندما عاد من الدكانة، كان مرهقاً وغالباً ما ينام بسرعة، غير أنه في تلك الليلة امتلأ طاقة وحيوية غير عادته، كان يدخل ويخرج، وقبل أن أنام قال لي: يا ولد لا تصدق خرافات أمك. في الصباح كانت أمي قد حملت بمكة، وجاء ميلادها مع موسم جديد ما بعد موسم الفيضان، ازدهرت الأرض وازدانت بالخضار، كنت قد بلغت العاشرة في حين بدأ أبي شاباً لم يتجاوز منتصف الثلاثينات من العمر.

عكس كل أيام الدنيا وسنواتها التي عشتها، في ذلك الفصل مضت الأيام بطيئة ممتلئة بالفرح والسعادة والحب بين الناس، كان المعلمون في المدرسة قد حلقوا اللحى والشعر الكثيف في الرأس وصنعوا ابتسامات زاهية ملونة بالأمل والتفاؤل، وكنّ نساء الحي يقبلن الأطفال في طرقاتهم إلى المدارس يضعن في

جيوبهم الجنيهات، واكتشفت أن السبب لكل ذلك الحب بين البشر هو نجاح محصول العام، فمدينتنا تعيش على محصول الفول، إن نجح وأثمر عمّ الخير، وإلا فالبلاء. كان نجاح المحصول في سنابله فرحاً للفقراء قبل الأغنياء، لكن أيام ما بعد الحصاد ستزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً، فالتجار الطماعون الذين يفيضون بالجشع كانوا ملاك الأرض لا يفلحون شبراً لكنهم يأخذون كل شيء بعد الحصاد.

وقبل أن يعم الفرح وفي فجر موشى برائحة حزن بعيد رأيت أمي تدخل الحجرة اليتيمة في بيتنا عائدة من المرحاض تولول خائفة، سارعت إلى حمل مكة التي صرخت فجأة في مرقدها، لم تكن مكة قد اعتادت الصراخ في الفجر لهذا شعرت بأن ذلك اليوم سيكون مختلفاً، فصراخ الرضيع ينذر بشيء ما كما يقول الناس. سارع أبي بربط الشاة الوحيدة التي نمتلكها في داخل المطبخ بعد أن بدأت عاصفة ترابية ضخمة تهب من كل الاتجاهات، وقبل أن تشرق شمس ذلك اليوم العجيب، بدأ الفجر كأنه بداية لحلول يوم القيامة، شعرت بالخوف الشديد والتجأت لأحضان أبي يدثرني بما يحفظه من آيات القران.

بعد لحظات هدأ الحال، لم تكن تلك عاصفة ترابية كما تعودنها في كثير من المواسم في مدن الشمال في المناطق الصحراوية المجاورة للنهر،كانت عاصفة من نوع جديد حدثت لأول مرة في حياتي ويقال أنها حدثت من قبل ربما قبل ثلاثين عاما. إنه الجراد تلك الحشرة النشطة، بعد أن كان الناس أغنياء وفقراء ساد البؤس الجميع وبدا أبي حزيناً لخسارة الكثير من أصدقاءه التجار

في حين فرحت أمي بأننا أصبحنا أغنياء بعد أن خسر الأغنياء تجارتهم. ومضت الأيام سريعة بعد ذلك الموسم كما تعودنا من قبل لكنها كانت تخبئ أشياء أخرى في الغيب.

10

بعد خروجي المبكر من الرميلة عدت إلى البيت الذي شهد مسقط رأسي قبل أربعين عاما لأجده وقد تحول إلى حجرات متفرقة بلا أسقف، نسجت فيها الغربان أحلامها. كان حي المندرة الذي يقع البيت عند نهايته من الجهة الشمالية قد شغرت منازله من الساكنين إلا من بعض العرب الرحل الذين استوطنوا البيوت بعد أن هاجر معظم الأهالي إلى عاصمة البلاد وسافر البعض الآخر منهم إلى خارجها يبحثون عن الرزق السهل والحياة التي تدر المال والشهرة.

لم تكن الرميلة هكذا قبل أن أغادرها، كانت مدينة صغيرة الحجم كبيرة الأحلام والطموحات، وكان الناس فيها ينتظرون مواسم الأفراح والأتراح كي يبددون الوقت بالحكايات المثيرة، ويعلنون عن تواصلهم الفاعل مع الوجود وحب الحياة. الحياة في حد ذاتها كانت هدفا، لم يكن أحد من الأهالي يفكر في الخروج، والذين كانوا يغادرون الرميلة سرعان ما يعودون إليها بعد أن يكتشفوا أن العالم لا قيمة له خارجها، ولم تكن في العالم الخارجي أشياء مدهشة تستحق من الناس أن يتركوا مواطنهم لأجلها ، كانت (هنا) الأندية التي لا تقفل أبوابها قبل منتصف الليل والأسواق المدارية التي تستقبل القوافل التجارية من جميع أنحاء أفريقيا شمال وجنوب الصحراء والمعديات التي تمخر النهر شرقا وغربا والطرق الصوفية التي قربت الناس من عشق الوجود

بعد أن وجدوا فيها راحة البال والنفس، باختصار كانت الحياة تتجه نحو ميلادها دوما لا تموت ولم تعرف بعد فكرة النهاية.

وجدت أناسا جددا لم أتعرف عليهم من قبل، فالصغار الذين بقي أهلهم هنا ولم يهاجروا كبروا والكبار ماتوا، كنت قد أدركت المدينة ما قبل صلاة الظهر في نهار صيفي غائظ عندما ارتفع أذان الظهر في المسجد الكبير أو مسجد الحكومة كما يسميه البعض ودخلت البيت الذي أصبح خرابة وبقايا أطلال لزمن مضى. لم أتعرف على صوت المؤذن، في السابق كان صوت عبد الحي المؤذن يرتفع من عند المئذنة الطويلة التي ترى من كآفة أنحاء المدينة فيملأ الصوت أركان المندرة حيوية وإيمانا، كان الرجل يصعد أعلى المئذنة ذات السلم الحلزوني ويؤذن للصلوات الخمس وينادي في ليالي رمضان الصائمين بأن يتسحروا قبل أن يدخل الفجر. كان صوته عذبا يستقطب الجميع حتى الأطفال كانوا يتوقفون عن اللعب ليسمعوا عبد الحي يؤذن للصلوات.

أتذكر أن وفدا جاء من الإذاعة الوطنية في العاصمة إلى الرميلة في ذات نهار بعد أن وصلهم خبر ذلك الصوت الكناري الجميل. نصب الوفد المكون من ثلاثة رجال أجهزته العجيبة والتي لم ترى الرميلة مثلها من قبل وبدأ في تسجيل صوت عبد الحي المؤذن، كان تسجيل الأذان في غير ما موعده قبل الظهر، وبعد أن انتهى الوفد من عمله جلسوا عند دكان ود الخضر الذي كان جزءا من المسجد تناولوا عصير الليمون بالماء الحار شربوه على مضض. رحب ود

الخضر بالضيوف لكنه كان غاضبا أن يؤذن الأذان في غير ما موعد الصلاة، واحتراما لضيوف الرملية لم يعلن غضبه، أثر الصمت.

غضب ود الخضر سرعان ما يزول هذه عادته، وغضبه في هذه المرة زال بما يفوق التوقع، بمجرد عودة الوفد الزائر في اليوم التالي للعاصمة. كان الوقت نهارا وقد جلس ود الخضر عند الدكان المطل على ساحة المولد الشريف يراقب الميدان الخالي من الخيام والتي سوف تنصب بعد أيام مع دخول شهر ربيع الأول، كان عادة ما يعاني القلق المتواصل لغياب الزبائن في موسم ما قبل احتفالات مولد الرسول من كل عام، فالناس كانوا يدخرون أموالهم لحلويات المولد التي يقدمونها لأطفالهم بهجة بالمناسبة ولا يرغبون في شراء شيئا من الدكان. أدار مفتاح الراديو، كان راديو عتيق اشتراه من العاصمة قبل سنوات بعيدة عندما زارها ضمن وفد من الرميلة ذهب ليهنئ رئيس البلاد بالاستقلال، وظل يحتفظ بهذه الآلة الصامدة ضد قواهر الزمن يتذكر تلك الأيام، يحكي عن رحلته مع الوفد المهنئ كأنه يحكي عن مدينة مختلفة غير الخرطوم فالذين كانوا يسمعون حكاياته ممن تعودوا السفر للعاصمة أو زاروها قريبا يكتشفون بسرعة حجم الاختلاف بين عاصمة ود الخضر والعاصمة التي يعرفونها، لكنهم لا يغالطونه فقد كان صعب المراس، ولو كان قد عرف عنه بأنه كذب ولو مرة واحدة لما صدقوه، لكنه كان قد عرف بالصدق في القول والأمانة في التجارة، لهذا كانوا يسمعون الحكايات إلى النهاية ليفهموا أن مدينة جديدة ولدت هناك عند ملتقى النهرين. لم يكونوا يتصورون أن الأشياء سوف

تتغير سريعا ليكتب عليهم قهرا أن يسافروا إلى المدينة الجديدة ويتركوا الديار التي أحبوها، وقبل أن يحدث ذلك التحول الذي جاء فجأة وبلا مقدمات كان الكثير من أهل الرميلة يقولون أنهم لن يستبدلوا الرميلة بأي مكان آخر في الكون.

في ذلك النهار الغائظ ولفرق الوقت بين الرميلة والعاصمة فقد أذن المؤذن في الإذاعة الوطنية متقدما بخمس دقائق على أذان عبد الحي في المسجد. الأذان الذي انطلق من الراديو كان صوتا مألوفا لود الخضر، في البداية تخيل أن الصوت شبه له أو أنه يسمع عبد الحي يؤذن لصلاة الظهر في المسجد فقد غاب عن ذهنه أن الراديو كان مفتوحا، لكن عقله عمل فجأة فولول قلبه فرحا وصرخ هنا وهناك، لم يكن ثمة أحد ليسمع صرخته فالجميع كانوا يولولون فرحا ينتظرون من يسمع لهم بعد أن تأكدوا أن ذلك الصوت الذي سمعوه كان صوت عبد الحي في الإذاعة الوطنية. صار الموضوع حديث الرميلة لأيام، بعده بدأ عبد الحي متبخترا في مشيته وتمرد على مكتب الأوقاف الذي كان يدير شئون المساجد في المدينة مطالبا برفع راتبه، فهو لم يعد مؤذنا عاديا، لقد أصبح مؤذنا وطنيا يسمع صوته في كآفة أنحاء البلاد.

عندما خفض صوت المؤذن في مسجد الحكومة كنت قد دخلت الحجرة القديمة التي شهدت مسقط رأسي في نهار غائظ، لم أجد فيها أثرا لذلك الزمن الذي مضي، ثمة خربشات على الحوائط عندما رأيتها رقرقت عيناي دموعا تقطرت على الأرض وفاض قلبي حنينا لزمان لا شك أنه قد مات وليس من

الممكن استعادته من جديد، عبرت بذهني ذكريات متداخلة وصور شتى للمكان والأحداث التي شهدها والأبطال الذين قاموا بأدوارها ورحلوا. ولم أجد بدا من أن أجلس وأشرع في البكاء وحيدا على الماضي، ففي مثل هذه المواقف الحارقة للذات قد يكون البكاء نوعا من السلوى اللذيذة، يغربل الروح، كان بكائي لسبب مجهول لم أعرف إن كان حنيني حقيقة أم نوع من الانفعال الكاذب وهل أنا في رغبة صادقة لأن أعيش تلك الأيام من جديد أم لا ؟.!

11

ألقيت نظرة على الجدران الجنوبي للحجرة، كانت صورة بإطار ضخم فضي معلقة هناك على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض تقريبا عليها فارسان يحملان سيوفهما استعدادا للمعركة، وفي طفولتي لم أعرف من يكون هذين الرجلين، في فترة لاحقة عرفت من أبي أن الرجلين هما الحسن والحسين أبناء الإمام علي عليه السلام، ولا يعرف أبي من رسم الصورة، لكنه يتذكر أنه اشتراها من أسواق دراو في جنوب مصر قبل سنوات بعيدة عندما كان يعمل بالتجارة مع قوافل العتامير.

أستطيع الآن مراجعة مواضع الأشياء في الحجرة بسهولة رغم الفاصل الزمني الكبير، هنا كانت الثلاجة، وهنا كان الدولاب الكبير الفخم المكون من أربعة أجزاء، في كل جزء أربعة أرفف، وفي الجزء الثاني من اليمين مرآة ضخمة أطول مني، كنت أقف أمامها فأشعر بأني أحتاج إلى أن أكون رجلا مثل أولاد عمي الكبار الذين سمعت عنهم ولم أراهم، كانوا قد ولدوا هنالك في الشرق. في الركن الشمالي الغربي من الحجرة كانت تقف شماعة الملابس المسماة بالحمار ولا أعرف حتى الآن لماذا كانوا يطلقون عليها هذا الاسم الغريب!. كانت الحجرة رغم صغرها مزدحمة بالتفاصيل والأشياء، كانت عالما بل كونا صغيرا يضج بجنون الحياة والفرح، فيها شهدت سنوات طفولتي الأولى حتى العاشرة قبل أن انتقل مع أسرتي إلى بيت جديد، لم يكن بيتا جديدا تم بناؤه حديثا

وإنما كان بيت قديم لجدي لأبي، قام أبي بترميمه وإعادة إصلاح بعض الأجزاء فيه، وانطلقنا إليه لأحس بأن العالم بدأ أكثر اتساعا من تلك الحجرة المربعة الضيقة، كان البيت الجديد كبيرا مزدحما بالغرف والفراغات الواسعة والتفاصيل التي شغلت جزءا من حياتي المبكرة.

شعرت بالحزن يحاصرني، كان حزنا مختلفا عما تعودت عليه من أنواع الحزن التي حاصرت حياتي في أزمنة مختلفة، كأنما ذلك النهار الصيفي الحار ليلة باردة من ليالي أمشير شهر الغبار، أحسست بعواصف ترابية تضرب في نوافذ الحجرة، لم تكن هناك نوافذ في الحقيقة كانت مساحات تطل على الفراغ، فمنذ سنوات بعيدة سقطت النوافذ وغابت. ثمة كائنات ما تعبر المكان في سكون الليل الأمشيري في ذلك الزمن البعيد، قادمة من وراء النهر، حيث الجبال البعيدة التي اختفي وراءها جدي ذات يوم بلا خبر ولا عودة، ولا يعرف أحد حتى الآن أين ذهب، وكان أن خرجت الرميلة كلها تبحث عنه في الصحراء وراء النهر والبيوت بلا فائدة. أدركت أن الناس في مثل هذه الجهات من العالم التي غلفت الحياة تاريخها بالألغاز يختفون، يذهبون فلا يعودون، وقد سمعت قصصا مختلفة تتحدث عن رجال ذهبوا وراء الجبال في الصحراء فلم يعثر لهم على أثر، لكنهم لا يهمونني كثيرا، كنت مشغولا بجدي الذي غاب، أشعر كأنما الأرض انطبقت على السماء والنجوم غارت في باطن الأرض، أسأل نفسي عن سبب شروق الشمس وجدي غائب، أبكي بكاء مرا، وقد غلف الحزن باقي

حياتي حتى سن الرابعة عشر وأنا صبي أجتاز الجداول التي تحمل الماء من النهر إلى المزارع تحت البيوت.

حزن تلك الليلة البعيدة من طفولتي في أمشير كان مختلفا، جعلني أفتح النوافذ رغم البرد، وأثبتها بالحجارة حتى لا تنغلق بالعواصف الترابية الهوجاء الضاربة عليها، كان القمر حزينا مثلي يراقبني من وراء النافذة، يختفي تارة، ويعود تارة أخرى، وثمة أصوات تأت من مكان مجهول، تتداخل الأصوات حتى يصعب تمييز فحواها، تختلط في أذني الصغيرة في طاحونة الليل الذي رأيته قاسيا ومريرا. لا أذكر هل كنت وحيدا، هل كان أبي في إحدى رحلاته إلى عتامير مصر؟ أم في الدكان، لربما عاد لرحلات الصحارى؟. هل كانت أمي تنام في الغرفة الثانية من البيت الجديد الذي ارتحلنا له أم لا ؟!. لربما كانت تحلب الشاة في المزرعة الصغيرة الملاصقة للبيت، فأحيانا كانت تستيقظ في منتصف الليل أو بعده تحلب الشاة قبل أن يستيقظ صغارها ويقضون على اللبن في ضروعها.

أدرت بصري تجاه المزيرة حيث الزيرين القناويين واللذين يبدوان أسودين في الظلام، مريم تصب الماء فيهما بالجردل، كانت تفعل ذلك لأن الماء لا يكون متوفرا في الصباح في المواسير الموصلة للبيوت من صهريج الرميلة الكبير الذي شاخ. هل أبصرتني مستيقظا ؟. لربما. لماذا أنت مستيقظ حتى الآن؟. هل أقول لها كنت أعد النجوم؟. ستقول " كذبت يا ولدي لا نجوم في السماء، فالغبار يغطي كل شئ". كنت أظن أن النجوم أخذها جده وغاب في رحلته المجهولة.

أقسمت مع نفسي لو كان جدي حيا لما رضي لي السهر ولأمي حتى منتصف الليل.

أدركت أن مريم نادتني وسألتني لماذا أنا مستيقظ حتى الآن؟. ماذا كنت أفعل؟. لماذا لا أترك عادة القراءة حتى منتصف الليالي؟. شككت في السؤال الأخير، هل كنت أقرأ حقيقة ؟. انتابني حزن مختلف جدا، خوف ما قلت في سري " استغفر الله العظيم يا ولد، أمك عمرها لم تعرف الكذب". قلت "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ" فوجدت أنني أحمل كتابا بين يدي بالفعل، كانت أمي قد رأت الكتاب. نمت لم استيقظ إلا على ضوء النهار يعبر النافذة المفتوحة منذ الليل إلى سريري الخشبي المكسو بغبار الأمس، أبصرت السماء صافية، كأنما لم توسخها غيوم أمشير الترابية، كانت مريم قد خرجت من المطبخ إلى (التكل) تحمل خمارة الكسرى، وكان قلبي يدق يعلن عن يوم جديد ملئ بالمفاجآت.

12

ذلك اليوم الجديد كان طويلا جدا ومملا جدا، أطول من ربع قرن من الزمان، حاصرتني فيه تفاصيل جدي الذي غابت ملامحه عني، هل كان طيبا ؟. أنانيا؟. هل كان يعشق الحياة ؟. يحب الموت ؟. هل كان يحبني؟. زاحمتني الأسئلة، ولم أكن أعرف الجواب، وأجزم أيضا أنني لو قابلت جدي حيا الآن وسط مجموعة من الرجال لما استطعت أن أميزه، لكن حدسي خاب مرتين. مرة عندما تركتني أمي مع أقراني أتلو آيات الذكر الحكيم مترنحا وسط طلاب المدرسة في حصة الدين أراقب المدرس العجوز الذي خبر دروب الصحارى، كانت أمي قد ذهبت لتحضر بعض الأغراض من السوق، لتعود وتأخذني في آخر النهار، تحملني خلفها على الحمار الأعرج الذي ورثته عن أبيها. وجدتني واقفا أمام بوابة المدرسة المصنوعة من الدوم، كنت أبكي، أحس بخوف وفزع من الوحدة، حملتني معها على الحمار وانطلقنا، كان الحمار يعرف طريقه جيدا إلى البيت عند نهاية الخور.

في مكان ما على الطريق عثر الحمار الأعرج فوقعنا من على ظهره على الأرض، سارعت أمي برفعي، تحاول أن تهدئ من بكائي وألمي، لكني واصلت البكاء وشعرت بدوار يحيط بي من كل جهة حتى غابت الرؤية عني تماما، فرأيت نفقا طويلا بلا نهاية يقف على جانبيه رجال كثر، شعرت بالخوف الكبير يفترسني، حتى وجدت رجل بين الرجال الكثر يبتسم لي، كان ذلك الرجل هو جدي

العبادي الكبير. ابتسم لي الجد في لحظة توقف فيها الزمن عن مساره، وتشابهت أوجه الرجال، حتى حسبت أنهم رجل واحد يقف أمام مرآتين متوازيتين تتكون له صور لا نهائية، هرعت نحو الجد، التصقت به، أعالج وحدتي القاسية بوجودي إلى جواره.

وخاب حدسي في المرة الثانية عندما حلمت ذات ضحى، كان أن رأيت رجالا يدخلون الرميلة بالعصي والخيل يثيرون الفوضى في كل الأحياء ويضربون الأهالي، كانوا ينهبون الدكاكين، تحول بعدهم حال الناس لفقر مدقع، وجاء رجل من وراء النهر لينقذ الناس، أدركت أن الرجل هو جدي، هرعت نحوه أحتمي من سياط الغرباء التي لم ترحم صغيرا ولا كبيرا، رجلا ولا امرأة. حدثت مريم السرور في المرة الأولى بعد أن عدت للبيت قلت لها : كان جدي يبتسم لي كما القمر في ليل الصحراء القاحلة. وحدثتها في المرة الثانية عن ذلك الرجل الذي أنقذني من سياط الغرباء بعد أن حملني وأنطلق بي إلى ما وراء النهر. ضحكت مريم وغلفتها الدهشة بالخوف، بعد أن رسمت لها تفاصيل وملامح الجد كأنما صورة له قائمة أمامي أطالعها وأحكي عن تفاصيلها الدقيقة.

13

دقائق وينتهي مسلسل الخوف .. تباعدت الساعات المرحة في حياة عبد المنتصر، رأي نفسه يشبه الببغاء، ويحب طائر البوم، لم يكن في حياته يوما ما منزعجا، أو كان يحس بالاستياء والقلق الذي يبدأ فجأة بلا مقدمات، معتصرا الذات، محولا إياها إلى جحيم لا يطاق. كانت حياة عبد المنتصر غريبة لكنها تشبه حياة الآخرين، غرابتها مكتسبة من طريقته في التعامل مع الأشياء من حوله، بما فيها البشر، الذين تشيئوا بمرور الزمن، وأصبحوا مجردين عن الحس والضمير، وأدرك الرجل أن طريق الوحدة هو أفضل الطرق لبناء المجد الإنساني عندما لا يوجد سواه من طرق لتحريك الحياة الجامدة الغير مستقرة .

لماذا أحب طائر البوم؟ لسببين لأن البوم عند كثير من الناس ينبئ بالشؤم، وهو يحب أن يخالف ما اعتاده البشر من طرق الوعي، وثانيا لأن البوم في نهاية الأمر مجرد طائر لا حول له ولا قوة يمكن القضاء عليه ببساطة، وهو متعاطف معه فالناس تكره ما هو خير، في عالمها الملوث بالأنانية والأكاذيب .

قبل عامين سافر عبد المنتصر من بلده الريفي إلى العاصمة بحثا عن عمل يفتح له آفاق السعادة، ويوسع له أبواب الرزق الحلال، لكن سفره كان بداية لمتاعبه وكرهه لحياة الآخرين وحياته، فالذين تعرف عليهم في أغلب الأحوال منافقون ومزيفون لا يعترفون بالأخطاء ولا يملكون ضمائر الرجال، والنساء

كن يبحثن عن الدراهم بمتعة مؤقتة، بعن شرفهن القديم في طرق المدينة الوعرة.

كان له صديق واحد تعرف عليه في السوق، لكن الصداقة لم تستمر لأن الرجل تمرد عليه في لحظة صفاء كما ظنها عبد المنتصر، كانت في حقيقة الأمر لحظة انتصار للقوي وانهزام للضعيف البائس وهو عبد المنتصر، جلسا في ليلة بلا قمر وراء سور سوق الفحم حيث يعملان سويا، وحكى عبد المنتصر لصديقه واسمه الوزان معاناته، أباح له بما في صدره من غيظ وتوجس من الأيام المقبلة، " الريس رفض أن أحمل جوالين على ظهري " .. قال لي : " أنت تريد أن تغير قوانين سوق الفحم ".. " يا سيدي الريس .. أنا أريد أن اكسب الوقت .. أليس الوقت من ذهب .. أليست هذه الطريقة جيدة لأن نكسب أموالا أكثر للسوق .. بدلا من أن نرفع مائة جوال في اليوم.. سنرفع مائتين على الشاحنات.."

سمع صديقه القصة وتظاهر بمجاملته، ثرثر معه عن الظلم وعن حب بعض الناس ، خاصة إذا ما كانوا رؤساء على الآخرين، في قتل جهود المخلصين، قال له : " لو كان الريس قد برر الأمر بقلقه على صحتك وخوفه عليك .. لصدقت .. ولكن كان سببه واهيا ... ماذا يعني أن تتغير قوانين سوق الفحم .. وهل هي منزلة من السماء."

عندما أصبح الصباح، تحول صفاء المساء لجنون من نوع فريد، لكنه ليس غريبا على سوق الفحم أبدا، كان الوزان قد دخل على مكتب الريس القائم

تحت الشجرة، وأخبره بالأمر، وكان كلام الليل قد محاه النهار، ولأن الريس ذكي ويعرف كيف يدير الحيلة، فقد سكت، لم يحدث عبد المنتصر بالأمر، ولم يقل له أنت قلت وقلت ، لكنه غير طريقته معه في التعامل، أصبح لا يهتم بشأنه كثيرا، وصار يشعره أمام الآخرين بأنه عديم الفائدة .

شعر عبد المنتصر بالأمر، فكر في أشياء كثيرة منها أن يغادر سوق الفحم لسوق أخر، وقال لنفسه في ساعة وجع :" هل هو سوق الفحم الوحيد الذي خلقه الله في المدينة .. حتى أظل رابطا نفسي لجذع شجرته "... تحرك خفية هنا وهناك، زار أسواق المدينة، سأل عن أجر الحمالين، كل الأجور بائسة، قال له ريس سوق الفحم الجديد القائم قريبا من نهاية المدينة غربا : " تعال معنا ... سأعطيك ضعف ما يعطيك له سوق الفحم القديم "، كان قد سمع بمواهبه الفذة في حمل الجوالات دون كلل أو ملل، ومقدرته على السير في الليالي المظلمة دون أن يعثر أو يقع الجوال من على ظهره أبدا ، وهذه ميزة مهمة في تهريب بعض البضائع من سوق الفحم وإليه، فليست كل أسواق الفحم تبيع وتشتري الفحم، هناك أشياء أخرى تباع وتشتري.

وافق أن يكون تحت لواء الريس الجديد، لا أوراق ولا عقود، الاتفاق بين الرجل بالكلمة، والرجل لا يغير كلمته، وهذا أول خطأ ارتكبه عبد المنتصر، فعندما حل أخر الشهر قبض نصف ما كان يقبضه في السوق القديم، قال له ريسه الجديد : " أنت تعرف الأحوال ... ألم يكن هذا الشهر سيئ الربح .. الشهر القادم سوف تنال الخير الكثير.. لا تخاف وأنت إلى جواري .."

14

كان ريسه الجديد ممتلئ الجثة، يمتلك عشرات الفدانات من عقارات المدينة، يبيع ويشتري في كل شيء، حتى ضمائر الناس، وقبل عام تزوج وقبل شهرين تزوج وطلق ، وهو الآن مقبل على الزواج من جديد، يدخل السوق فترتجف الأفئدة، وتهتز رموش الرجال، ويبول البعض واقفين على سراويلهم الوسخة، ينتفض كالنسر ويقلق كل من يعمل معه لحظة دخوله لسوق الفحم، " أين كانت هذه الأمور، لماذا لم تعرفها منذ البداية ".. هكذا كلم عبد المنتصر نفسه وهو يمشي، ويجلس، ويقف، بعد أن بدا ظهره في الانثناء وهو لا يدري، وفي ليلة داهمه الوجع، فسقط على الأرض مغميا عليه، حتى دخل عليه أحد رفاقه في السوق، " ما فعل الله بك يا عبده " .. لم يسمع عبد المنتصر له، وقد سمعه، لم يتكلم، ولم يحرك جفنه، تظاهر بالغيبوبة، عاشر الصمت للحظات طالت، رشه الرجل بالماء، لم يقم، بدأ يراجع من تحت العينين المغمضتين أحلامه المؤجلة، وماضيه الملئ بالتفاؤل، كانت أمه تريده أن يكون طبيبا ماهرا يداوي جراح الآخرين، وحمد الله في سره أن ذلك لم يكن لأن الآخرين لا ستحقون على أية حال، فلتمتد جراهم طولا وعرضا،.. رأي أبيه الذي مات وهو يحمل الماء بعربته التي يجرها الحمار في الحي، كانت لحيته قد ابيضت، وعيونه قد احمرت، قال له : " قم يا بني ولا تلتفت للوراء ... ستصل إلى مرادك.."

لم يكمل تعليمه، لأن الفقر حاصره أسرته وأقلق مستقبله، احترف مهنة الحمال، فقد منحه الله ظهرا يحسد عليه في قوة التحمل، وبعد أن ضاق الحال، ذهب إلى العاصمة، لكن الأمور سارت لما كان.

استيقظ في الصباح الأول لوقعته الأولى في حياته، كانت العين قد أصابته وحسد الآخرين قد حاصره، وفق وحيدا وسط الساحة في سوق الفحم، لم يأتي الحمالون بعد، والريس لا يأتي قبل منتصف النهار، تأمل جوالات الفحم المرصوصة، وفي أركان من الزريبة كانت أكياس صغيرة قد خُبأت، ماذا فيها " الله أعلم "، لكن رفقاء الريس ومن حوله يعلمون، فقد ارتفعت عماراتهم في سماء الخرطوم، حمالو الفحم صاروا ملوك الزمن الجديد، تمطى يمينا وشمالا، بحث عن عود الثقاب في جيبه وجده، أخرج علبة الثقاب، قدح العود، كانت الزريبة قد اشتعلت، وبدأ يوم جديد مات خسر فيه الريس ملايين الجنيهات، وهرب عبد المنتصر إلى مدينة جديدة، باحثا عن العدل.

15

كم صعب أن تفكر في الماضي لتكتشف فجأة أن الحياة دائما ما تصب أنهارها في بحار مالحة، حتماً كان على العذب أن يتملّح، على الأحلام أن تذوب تماماً وتتلاشى في العدم، تكتب نهايتها بكل بساطة، مرتهنة للقدر، لصيرورة الأشياء في هذه الحياة التي لم أفهم عنها شيئاً بعد، ما هي الخلاصة وإلى أين سأنشد دربي في الغد ؟ وهل تبقى في العمر بقية كافية ؟. أعتقد أن المتبقي لن يكفي ولو لمجرد اجترار الذكريات، ولرجل مثلي تتخذ الذكريات نوعاً من الوخز القاسي على النفس، ساعة يكون كل شيء صعبا، مغلفا بمضادات الحياة، النمو، الحركة، التوالد، المغزى.

لا أحد يتذكر مثلي ذلك اليوم البعيد في طفولتي، كنت في الخامسة على ما أعتقد، هل كانت لدي أحلام معينة يومذاك ؟ لا يمكنني التكهن بأي جواب، ما أعرفه جيداً أن كابوس حياتي بدأ منذ الطفولة، في يوم قررت فيه الهروب إلى هناك، وراء الجبل، حيث أنشد راحتي، أعيش وحيداً بعيداً عن الظلمة، عن عالم لا يعرف الإلف ولا يحترم أحد، والعالم الذي أعنيه هو الناس، بكل ما فيهم من الجرأة القبيحة، الأنانية المفرطة، الحاجة الملحة لقتل الآخر، روحياً وفيزيائياً، تخيلوا طفلاً يشعر بكل هذا القبح والزيف، كيف ستكون طريقته في مواجهة الأشياء من حوله ؟. الآن لا أمتلك تفسيرات منطقية لتصورات ذلك الطفل الذي كنته، قد أشعر أحياناً بالتعاطف معه، أو اكرهه، ليس مهماً

بالدرجة الكبيرة أن أحدد موقفي، فلقد مضى ذلك الزمن، واتخذت الحياة مساراتها العصية، أنا الآن في عنفوان الشباب، في الوقت الذي من المفترض فيه أن أكون.

لم يتحقق حلمي كطفل في الهروب إلى ما وراء الجبل، وقد نشأ ذلك الحلم بشروط موضوعية جداً، فأفكار الأطفال بخلاف الكبار لا تعرف العبث، عندما يفكر الطفل يجب أن نحترم تفكيره، أن ندرك أن وراء هذا التفكير حقيقة غائبة عنا، ذلك لو جهلنا الأسباب، وإذا ما أدركناها علينا أن نسرع لتلبية الفكرة، صحيح قد تكون بعض الأفكار مستحيلة مثل ذلك الولد الذي طلب من أبيه نجمة في النهار، أو آخر طلب سيارة من أب فقير، لكن قليل من رد الاعتبار يكون كافياُ لإقناع الطفل أنه على حق، أقول ذلك لأن والدي لم يفهم مغزى ما حدث معي في ذلك العصر البعيد، عندما خرجت من الصالة في بيت جدي إلى الحوش لأشاهد رجلا جميلا يتحرك في قبة السماء، كانت السماء صافية بعكس كل سماوات الخريف، وأكتسب ذلك اليوم طعماً خاصاً لإحساسي بأن حريتي كطفل تحققت في تلك اللحظة بالذات، تخيلوا طفلاً يفهم في معنى الحرية، نعم فهمت كل ذلك، عندما لوّح لي الرجل الجميل الذي بدأ ملوناً كالشفق الأحمر وحدثني بحنان غريب لم أجده من والديّ وأهلي، في تلك اللحظة قلت أنه الله، كم هو جميل هذا الرجل الذي يشبه الله، كم كنت انتظره منذ قرون بعيدة ليحملني إليه، يخلصني من هذا العالم الغريب، الذي لا يرحم طفلاُ على الأقل.

16

لم يترك لي فرصة لأسأله من أنت ؟ غاب سريعاً مثل ما جاء سريعاً، ولم يكن بإمكان أحد في البيت أن يصدق خرافات طفل يمثل دور نبي الله موسى، ردة الفعل الوحيدة جاءت من جدتي الساخرة إلى حد بعيد:

"لعله سيكون نبياُ عندما يكبر."

نعم وما المانع أن أكون نبياً، كنت أريد أن أرد على جدتي بهذا الشكل، وقبل أن تخرج الكلمات مني، وجدتها تتراجع لوحدها، كان الله يبتسم لي من وراء القبة، هناك وراء الجبل، حيث ظل حلمي. اتخذت الشمس مسارها نحو النهر، لتختفي وراء الجبل، بينما ظللت أفكر في الأسئلة الكثيرة التي كانت تحلق كعصافير حول رأسي الصغير، وكالعادة ارتهنت لسلطة أمي في إصرارها عليّ أن أنوم مبكراً حتى أستيقظ في الفجر لأصلي الصبح حاضراً مع أبي في مسجد الحي، لم تكن لدي رغبة في الصلاة، وكان يمتلكني شعور عظيم بأن هذه الليلة يجب أن لا تمضي هكذا ككل الليالي، سأظل مستيقظاً حتى لو نام الجميع.

لم تتركني أمي قامت بوضع العشاء على الأرض، كان خبزاً وقليل من لبن الماعز، لم أكن جائعاً، كنت فرحاً جداً لدرجة الشبع، وكنت أفكر في أشياء كثيرة أخرى غير الأكل، هؤلاء الناس لا يفهمون أن في الحياة ما هو أهم من الأكل، كما أنه بإمكاننا أن نستمر في العيش حتى لو أننا لم نأكل، كنت مقتنعاً بذلك ولكن لم يكن بإمكاني أن اقنع جدتي على الأقل، دعك عن أمي، فجدتي كانت

أكثر قدرة على تقبل الكثير من أفكاري، لكنها ماتت قبل أن أبلغ سن السابعة، وأنا استعد لدخول المدرسة، كان يوماً حزيناً، بكيت فيه لأفهم أن البكاء طاقة منحنا لها الله لنغسل بها القلوب ونطهرها من رجس الحياة.

ظللت مستيقظاً حتى الفجر، إلى أن ناداني أبي للصلاة، ظن أنني نائم وهو يراني تحت اللحاف، في الواقع كنت أفكر، كنت مشغولا بالرجل الذي ذهب وراء الجبل، وعليّ أن ألحق به، وقد انشغلت بالتفكير ونحن في طريقنا إلى المسجد واثناء العودة إلى البيت، كنت أتصور أن أبي سيلاحظ أنني مهموم بشيء ما، سيسألني ما بك ؟ لكن لم تبدر منه أي إشارة من هذا القبيل، كان يواصل تجهمه، وهو يتمتم ببعض الأسماء الحسنى، محركاًُ مسبحته من أعلى لأسفل، يرمي بحبة وراء أختها، حتى أدركنا باب البيت دون أن أنتبه لشيء، عندما سقطت عند العتبة أصرخ من الألم، فقد تعرضت لجرح غائر، نتج عن اصطدام قدمي اليمني بحافة العتبة الإسمنتية.

بعكس ما يفهم الناس من حولي أن هذا نذير شؤم، وبعكس ما فهم الجميع في البيت، فهمت أنا أن هذا الجرح الغائر بشارة خير ستملأ حياتي بالسعادة والهناء عندما اكبر، وسأحقق حلمي في الدنيا، حتى ذاك اليوم لم أكن متأكداً من حلمي، أبي كثيرا ما يردد أنه يريدني أن أكون طبيبا، فالأطباء رزقهم كثير هكذا سمعته يقول، وأمي كانت تريدني مهندساً كأخيها الكبير المهاجر في دول الخليج والذي بني اكثر من منزل بالخرطوم، وقد دخلت في نقاشات مطولة مع أبي سمعت بعضها في الليل بين اليقظة والحلم، تحاول إقناعه بأن المهندسين

أوفر حظاً في جلب المال، كدت أن أصرخ فيهما من تحت لحافي، دعوني وشأني، لكني خجلت عندما اختلست نظرة من ثقب صغير في اللحاف القديم، رأيت من خلاله أبي يداعب أمي وكلاهما عاري، كان الضوء المتسرب من ثقوب في نوافذ البيت القديم كافياً لرؤية كل شيء، لكنه لم يكن يسمح برؤية المستقبل، لأنني لن أكون طبيباً أو مهندساً، ولو كان بإمكان النور أن يُرِي الإنسان كما قرأت لاحقاُ في الكتب لرأى به الحقيقة، كم هو مزيف هذا العالم بالأكاذيب والترهات.!

لم يكن ممكناً أن أقنع أبي بحلمي الذي تبلور في هذا اليوم بالذات، في هذا الصباح الذي شعرت فيه بالألم الغائر في جرحي العميق، هذا الجرح الذي لن يندمل أبداً طوال حياتي، والذي لن تجدي معه محاولات الأطباء الذين يحلم أبي أن أكون واحداً منهم، وقد استغل جرح قدمي بشكل انتهازي ليقنع أمي أن الطبيب أهم من المهندس، كان جرحي ينزف وأبي يثرثر وأمي تحاول أن تقنعه من جديد، حتى أنهمر الدم قوياً يملأ الأرض تحتي، وأنا أصرخ وأتألم، دون أن تغيب عن ذهني صورة الرجل الذي ظهر في السماء مبتسماًُ لي، ودون أن أنسى حلمي أن أهرب إلى وراء الجبل، وفي تلك اللحظات القاسية بين الألم وتدفق الدم، وصراخي، كنت قد تذكرت كلام جدتي بالأمس " لعله سيكون نبياُ عندما يكبر"، في تلك البرهة بالذات قررت حلمي الذي لا يمكن لأبي أو أمي أو أحد من العالمين أن يتصوره.

17

استيقظت في الظهيرة، فقد سهرت طوال ليلة الأمس، كان الجرح قد أشتد ألمه، ومعه اشتدت رغبتي في الهروب ما وراء الجبل، لكن كيف سأهرب إلى هناك وأنا في هذا الوضع القاسي، كان عليّ أن أنتظر العصر حتى يأتي ممرض الحي ليقوم بتضميد جرحي، فالممرض الوحيد ولأمر لا أفهمه، كما عرفت من حوار أهلي حولي، سافر أمس إلى بلدة مجاورة ليعزي في وفاة أحد أقاربه، أبي قال أنه سيعود عصر اليوم ليقوم بوقف نزيف الجرح، وإلى أن يأتي الممرض قامت أمي وجدتي بوضع كمادات من الماء البارد المملح على الجرح، زادت من ألمي وصراخي، وخلت أنني أعيش كابوساً غير قادر على الخروج منه، كانت ثمة أشباح تتحرك في البيت، وعيون تحملق فيّ، وكان الرجل الذي لوّح لي بالأمس يقف عند الباب، يناديني:

"تعال لتذهب معي إلى هناك"

"إلى أين ؟"

"إلى حيث السعادة والراحة الأبدية"

اعتقدت أنني سأموت في تلك اللحظة، لم يكن لي تصور خاص للموت، ولم تكن جدتي قد ماتت لأفهم من موتها شيئاً عن معنى الموت، وجدت نفسي أسال جدتي التي كانت تقف إلى جواري عند نهاية السرير:

"جدتي .. هل سأموت ؟"

"لا تقل هذا يا علي .. بعُّد الشر عنك"

"هل الموت شر ؟"

كنت أريد أن أعرف، فألقمتن أمي حجراً كبيراً من العبارات المجتزأة:

"يا ولد لا تتكلم كثيراً"

طلبت مني ألا أتكلم، فنسيت أسئلتي عن الموت، نسيت الرجل الذي ينتظرني عند الباب، وبدأت في تذكر جرحي الغائر، فشرعت في العويل، حتى جاء العصر، ومعه دخل الممرض العجوز يحمل أدواته القديمة، تشبه تلك الأدوات التي قام ذات يوم بقطع جزء من ذكري بها، عندما حملني أبي، وضعني على الطاولة، وامسكني أربعة من شبان الحي العتاة، اثنين من عند الرأس، واثنين من عند القدمين، وبدأ العجوز عمله، لأجد نفسي بعد ساعات مستلقيا على ظهري، والنساء من حولي يقلن مبروك لأمي، وكانت جدتي تمشي في الغرفة الكبيرة تدندن أو تكلم نفسها وهي تعد الجنيهات التي سرقتها من تحت وسادتي، بعد أن خرجت نساء الحي.

حتى الصباح، ربما لم أنم جيداً، وكان يمتلكني شعور بأن الرجل قادم ليأخذني إلى ما وراء الجبل، هناك حيث سأرتاح من الحياة، من أمي وأبي وجدتي، هل كنتم أكرههم فعلاً، لا أعرف، كان صعب عليّ الإجابة على السؤال، كما كان صعب عليّ أن أغامر وحدي بالهروب، هذا لم يمنع الفكرة من التحليق فوق

رأسي، في الثلث الأخير من الليل عندما هجد الجميع لنوم عميق، حتى أبي كان قد نام ونسي في ذلك الليل أن يداعب أمي قبل نومه كما تعود كل ليلة.

وجدت نفسي أتسلل من بوابة البيت، مستغلاً غفلة أبي وأمي في نوم عميق، ربما كانوا يحلمون، في هذه اللحظات بالذات، بهروبي إلى هناك، لكن ماداموا مستغرقين في الحلم فلن يستيقظوا، لن يشعروا بحركتي البطيئة، أكتشفت كم أنا ماهر في التخفي والتحرك بشكل سلحفائي، ربما اصلح ذات يوم لأكون لصاً ماهراً، قد أفكر في ذلك إذا ما عجزت عن بلوغ ما وراء الجبل، ولا شك عندي في مصائر الدنيا التي قد تقودني إلي أي طريق، رغبت أم رفضت، ليس مهما بالنسبة لها إلى أين سكون مصبي، ما دمت واحداً بين ملايين يكون عليها أن تحتضنهم، ومن الصعب أن تسعدهم جميعاً.

قبل ان أبلغ نهاية الشارع الصغير الملتصق ببيتنا تماماًً شعرت بعظمة الجرح الذي لم يتوقف ألمه بعد، لكني تناسيته بالتفكير في هدفي، وبدأت في الجري كريشة، دون أن ألتفت ورائي أو أحفل بالألم، كانت قدمي قد تورمت ورأسي قد أنقسم لنصفين كما يبدو لي، وزادني الجرح الممتزج بالخوف عناداً ومكابرة في بلوغ مرامي، كم أنا عنيد.!

كنت قد بلغت شاطئ النهر، حاولت أن سمع صوت نفسي فقد غاب عني فجأة، لكن لم يكن بمستطاعي أن اسمع شيئاً، لقد تسربت كل همومي وأشيائي في سكون عميق يحيط بالمكان، كانت الأشياء نائمة، العصافير، التماسيح، البشر، الأسماك، لا شيء يتكلم، يعلن حياته إلا أنا، كأنما أعدم

الكون ذاته في برهة صغيرة من الزمن، كأنما الحياة اختفت تحت أوهى أسباب وجودها، غير راغبة في الوجود، حتى قمر السماء الذي رأيته قبل قليل، كان قد توارى مع الظلال المتحركة التي سكنت أخيراً، ماتت.

أحياناً ينمو الإنسان بأسرع مما تقول قوانين الفيزياء والوجود، كنت اعتقد ذلك، ومع محاولة الشمس للخروج من مخبئها، كنت أحلم بأن أكبر، أكون رجلاً طويلاً، ذلك الرجل الذي سيحقق حلم نبوته، لم استرسل في الفكرة لعدم واقعيتها، كنت أنظر إلى الجبل وراء النهر، أراه يقترب مني، في حين باعده النهر عني، ناديته:

"يا جبل تعال لتأخذني"

"من أنت أيها الغريب؟"

"أنا علي"

"علي ! من أنت ؟"

"أنا علي يا جبل ؟"

شرعت في البكاء وحيداً، لم أتبين، هل كان بكائي بسبب اشتداد الألم في جرحي، أم بسبب الجبل الذي كنت أظنه سيعرفني جيداً:

"حتى أنت ظالم مثلهم ؟"

"من هم ؟"

18

لم أكن قادراً على الجواب، تراجعت الكلمات عني، رأيت النهر يبدو أكثر عرضاً، ليباعد الجبل أكثر فأكثر، كنت محتاجاً للرجل الذي لوحّ لي في قبة السماء، لأقول له احملني معك، كنت سأقص عليه قصصاً كثيرة، هل سيسمعها مني، أم سيدعيّ سماعها كما تفعل أمي مرات عديدة استغفالاً لي، أم سيكون صادقاًً في التعامل معي، وجهه الجميل يحدثني أنه لن يكذب، سيكون حنوناً، يمنحني العطف الذي ابحث عنه، الحنان، سيعلمني من أكون، ويحترمني، لن يعاملني كطفل أبدا، مثلما تقول جدتي، دعوه أنه طفل لا يفهم.

المشكلة أني أفهم، وهذا ما لا تفهمه جدتي رغم ادعاءاتها الكثيرة، افهم أنني قادر على إدارة حياتي بمفردي، ولكن من سيمنحني هذه الفرصة، حتى الجبل لا يثق فيّ، لماذا وثقت فيه طوال الأيام السابقة، سأجد له العذر فهو لا يعرفني، لو كان قد عرفني لرحب بي، وناديته من جديد، لأكتشف كم كان ظني خائباً:

"يا جبل .. أنا علي"

"علي .. تعال يا علي .. تعال يا ولدي يا قرة عيني .. لماذا تأخرت في

المجيء لي.. لقد ظللت أنتظرك قروناً طويلة لتخلصني"

"أهـ " قلتها بصوت عالي، دون أن أتحكم في مشاعري، وقلت لنفسي آه حتى الجبل الذي لجأت إليه يريد الخلاص مثلي، ماذا سأفعل يا الله ، لكني تماسكت، يجب أن لا أبدو عاجزاً أمام الجبل، عليّ أن أبذل ما في وسعي لتخليصه إذا استطعت ولكن ماذا يريد مني بالضبط:

"أخلصك .. مما ؟"

"من جلوسي الطويل في هذا المكان .. من وحدتي"

"أنت وحيد"

"إلا تراني وحيداً"

سأعبر النهر لأصل إلى الجبل، غير أني لا أعرف السباحة، كم مرة حاولت التسلل إلى النهر لأتعلم السباحة مع أولاد الحي، تأتي أمي وتأخذني كتحفة عليها الاحتفاظ بها في البيت، تصرخ فيّ " ستموت يا ولد "، كنت قادراً على مجادلتها، لم تمنحني الفرصة ولو لمرة واحدة أن أحدثها أن موتي إذا جاء لن يتأخر، كيف سأعبر النهر أذن. كان الجبل يفكر في ذات ما كنت أفكر فيه، مهموماً به، سمعته يكلمني:

"أنظر يمينك .. هل ترى قارباً ؟"

كان هناك قارب صغير يكفي لحملي إلى الضفة الثانية، وفي حياتي لم اسق قارباً، كيف سأتعامل معه، لم أتوقف أو أخاف، نزلت إلى القارب، فككت

الحبال عن الصخرة، وبدأت في التجديف، كان القارب قد أندفع في الماء، تحرك بسهولة لم أتصورها، كنت فرحاً جداً، أنني أقترب من حلمي، ها هي الضفة الثانية من النهر تقترب مني، الجبل يقترب مني، أشجار النخيل تلوّح لي كما يلوّح صديقي الذي في السماء، بدأ القمر ضاحكاً وراء النخيل بعد أن كان غائباً، تحركت الأشياء الساكنة، العصافير، التماسيح، الأسماك، الموج، الحياة ولدت من الحياة، كان هدفي يقترب بأكثر مما توقعت.

بقدر ما اقتربت من هدفي، جبلي، بقدر ما كانت الأشياء تسير بغير توقعاتي، إنه جنون العالم، كم كان على طفل مثلي أن يتعلم احترام قوانين الكبار، حتى لو لم يفهمها، فكرت بهذه الطريقة ثم بكيت، بكاء طفل وحيد عندما اشتد جرح قدمي من جديد، تورم القدم ليكون ثلاثة أمثال حجمه الطبيعي، ومع الألم المبرح تنفس الصبح بعسر شديد، كانت الرياح الشمالية العاصفة بالتراب قد بدأت في الهبوب، حاولت مقاومتها بتحريك القارب نحو هدفي، لكن الريح كانت أشد مني وأقدر على نيل مرادها، أن تنزح بي جنوباً وبعصبية هائلة، كلمتها:

"يا ريح ماذا جنيت ؟"

لم تكلمني، حاولت أن أكلم الجبل، وجدته أكوام من الحجر لا تسمع ولا تنطق، اكتشفت جنوني وعبطي أمام رياح قاهرة لا ترحم بتراب مثقل بالانتقام من البشر، ومع الريح ارتفعت الأمواج وهبطت بعنفوان قريب، صرخت بصوت عالي، لا أحد إلى جواري، تمنيت لو أنني كنت أحلم، نائماً إلى جوار

أمي، هل كنت أحلم ؟ أبداً كان المكان هو النهر وأنا في جوف قارب صغير يتهادى بي ذات اليمين وذات الشمال سائرا بعنف نحو الجنوب يريد أن يقذف بجسدي الصغير في الماء، وأنا لا اعرف السباحة، ارتفع صراخي، بكائي، لكن لا أحد، لا ملجأ، حتى الرجل الذي لوّح لي في السماء كان قد هرب عني، ماذا سأفعل يا أنت ؟ ناديته، لكن لا حياة لمن تنادي، لا مناص، كيف سأواجه قدري، موتي، وبدأت أنتظر النهاية.

كنت قد فقدت وعيّ، غبت عن العالم الخارجي، القارب وجد فرصته ليسرح في النهر كما يشاء، بعد أن تنازلت يديّ عن المجدافين، انتابتني اضطرابات وكوابيس من طفولتي ومستقبلي الذي لم يأتي بعد، لم أفتح عيني مرة ثانية إلا مع أرض ممتدة واسعة، نزلت من القارب، لأجد نفسي في قمة صفائها الروحي، أقف بجوار شريط النهر وسط غابة من الأشجار الجميلة، تتزاحم فيها نباتات متسلقة صغيرة وألوان من الزهور اللامعة تحت ضوء الشمس الضاحكة، كأنها الجنة، أو هي، قلت " يا الله "، تلفت يمني لأجد الجبل شامخاً يلوّح لي ومن بعيد كأنني أرى الرجل الذي تركني وحيداً وهرب إلى السماء، تذكرت أمي وأبي وتمنيت لو أنهما معي في هذه اللحظات.

19

رأيت رجالاً كثيرين جداً لا تحصيهم العين مرة واحدة، يمشون وراء رجل بهي الطلعة، يشبه الرجل الذي رايته في السماء، أو كأنه هو، بل هو، لكن لماذا لم يلوّح لي بيده هذه المرة، هل لأنها مشغولة مع العكاز التي يتوكأ عليها، كم هو عجوز وبائس، لماذا بدأ جميلاً في ذاك العصر البعيد، القريب ؟. وبتأملي جيداً، أكتشفت أن العين قد تخون في المرة الأولى، فالرجل في مقتبل العمر، قوياً، متماسك البنية.

اقتربت منه والرجال، فسمعته يلقي بتهديداته عليهم، يصدر التعليمات هنا وهناك، افعلوا، لا تفعلوا، كونوا، لا تكونوا، أما هو فلا يفعل شيئاً على الإطلاق، كان يتذمر فحسب، يغضب، ينفعل، يقهر، ثم يعود رحيماً ودوداً، كأنه طفل مثلي في طباعه، كأنه جميل وأحياناً قاسي قبيح. لم أفكر طويلاً، فقد نادني:

"تعال هنا"

اقتربت منه، ابتسم لي ثم كشّر كأن وجهه قطعة من جهنم، نادى أحد رجاله بإحضار سوط " العنج "، قدم السوط لي:

"هيا أرني كيف تضرب الرجال"

في سرعة مفاجئة كان الرجال بكثرة عددهم قد اصطفوا صفاً واحداً لا اعوجاج فيه، وبدأت في الضرب، لم يكن بإمكاني مقاومة الرجل، فقد حاصرتني نظراته القاسية، وكنت خائفاً إلى الحد البعيد، أرفع السوط عالياً بأكبر ما عندي من قوة، أهبط به في ظهر رجل، أرفعه لأهبط به على ظهر آخر، حتى شعرت بالتعب، والألم يتفجر في قدمي المتورمة، كان الرجال صامدين كحجارة الجبل، لا يتزحزحون عن أماكنهم، والرجل يتأملهم في لهف غير عادي، يتمايل طرباً مع خبط السوط على الظهور.

يسيل لعاب الرجل فينزل أكواما على الأرض تحته، يقف، ثم يجلس على كرسيه متمايلاً، ثم يقوم مع خبطة جديدة:

"أي نعم .. أرني كيف تضرب الرجال يا علي"

"تعبت .. تعبت يا ـ"

لم أكن أعرف اسمه، ولم يحدثني، صرخ فيّ بصوت أهتز له الجبل، اهتززت مع الجبل، أما الرجال فكأنهم لا يشعرون، نظر إليّ، ضحك، تغير وجهه بهياً جميلا، يشبه الرجل الذي لوّح لي في السماء:

"سأعطيك مزيداً من القوة .. واصل الضرب"

بالفعل امتلأت روحي قوة لا قبل لي بها، كأنني أحمل الجبل فوق رأسي وأجرى به، ومع هذه القوة الخارقة شعرت بالسعادة العظيمة التي أبحث عنها، سعادتي التي تزداد مع بطشي بالرجال، وبدأت أضرب يمينا وشمالا، جنوبا

وشمالا، اضرب بكل قوتي الهائلة، لا أفتر، لا أتألم، نسيت جرح قدمي، نسيت أنني ذاك العليّ الحنون، سال لعابي مع تدفق الدم من ظهور الرجال، ومع شدة حماسي ورغبتي في المزيد من تدفق الدم واللعاب، سمعته يصرخ فيّ بشدة:

"كفى .. كفى يا مجنون"

في هذا الصباح بدأ كل العالم مختلفاً، إن كنت لا أزال في العالم الذي أعرفه، فهل أنا علي ذلك الولد ذي المرأى الوسيم، الذي تعشقه نساء الحي، يردن إطفاء نار شهواتهن به قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، لم أكن أتوقع ما جرى لي بعد قليل، وأنا في قمة النشوة، أن أحقق ذاتي، أبسط سلطتي وجبروتي على البشر، استجبت للأمر وتوقفت عن الضرب، متأملا في قوتي العجيبة التي لا نهاية لها، انقطعت تأملاتي:

"أعطني السوط وتعال هنا أمامي"

أعطيته السوط، وقفت أمامه، لم يكن ثمة بد، ولم يكن ممكناً على أية حال، مما افتريت بقوتي، أن أقاوم هذا الجبروت، القهر الذي لا يقاوم.

أمسك السوط وبدأ ينفذ في رغبته الخفية، تلك الرغبة التي راودته منذ أزمنة بعيدة، لم يجد سبيلاً إليها إلا اليوم، عندما جئته بنفسي، كان بإمكانه أن يحضرني إليه إن شاء، لكنه أراد قهري بأن أسير نحوه بإرادتي الصادقة، لأصل إليه، مهما يكن فليس من سبيل الآن غير الرضاء بالمكتوب، أن أصبر، أصبر

كما صبر الرجال على الألم، كما صبرت على جرح قدمي، وبدأ في ضربي فيما شرعت في البكاء، الرجال لا يبكون، لكني ابكي، لا أحد تحرك لإنقاذي، كم هم جبناء أمام هذا الطاغية، لا أحد منهم خاف على مصيري، أن أموت، ألم أعذبهم قبل قليل، ألم أطيع أوامره، ولكن ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا.

حاولت أن أهرب مثلما هربت في المرة الأولى من بيتنا بهدف الوصول إلى ما وراء الجبل، فوجدت الرجال العتاة يحيطون بي في شكل دائرة، أمسكوا بجسدي الصغير وهزوه هزتين فاستسلمت لهم تماماً، فوقع السوط على ظهري وجنبي وقدمي المتورمة، تقطر الدم والدمع وبكيت ثم سكت ثم بكيت، ولكن لا خلاص، وبين الوعي واللاوعي سمعته يصرخ:

"ارموا به أرضاً"

20

كشيء تافه من أشياء العالم الكثيرة التافهة، كنت قد وقعت على الأرض، كأني نجمة هوت من مجرة بعيدة منذ مليون عام لترتطم بالأرض في هذه اللحظة بالذات، كنت جسداً خامداً عن الحركة، وفكرت في الموت بجدية، فسمعته يأمر رجلين بأخذي إلى النهر، أخذاني، دخلا بي الماء البارد، مثل سمكة تقاوم الموت، أعيدت من البر للماء، أفقت، وأنا أسمع الصوت الواحد يتكرر، افعلوا، لا تفعلوا، كونوا، لا تكونوا، فاستسلمت للغيبوبة من جديد، اسمع الرجلان يحدثانه:

"لقد مات سيدي"

"أنتما قتلتموه .. لم تقوما بعملكما بصورة حسنة"

كان يفكر في عقابهما، لكنني لم اكن قد مت، فالطاقة التي شحنني بها كانت كافية لأن أحيا ألف سنة، مقاوماً شتى أنواع العنف والعذاب، الزيف والأباطيل، في عالم لا يفتر عن هذه الترهات، يكتسب بها معنى وجوده واستمراره، كان الكلام ينساب منه بتتابع وقوة، وبدأ الرجل منزعجاً لموتي، لم يكن يريدني أن أموت بهذه العجلة كما عرفت منه لاحقاَ، فقد رأى فيّ كائناً جميلاً يمكن أن يطفئ به شهوته، كان يحب الصبيان الجميلين كالملائكة، وكنت أنا واحداً منهم رسمت دربي إليه وأنا لا أدري.

نادى مجموعة من رجاله الأقوياء، وقفوا ورؤوسهم لأسفل كما اعتادوا الوقوف أمامه، صاح فيهم:

"هيا ليلحقوا بالولد إلى الجحيم"

جرجر الرجال الرجلين، وبعد قليل جاءوا بثوب يقطر دماً، عليه رأسين، كل رأس بعينين شبه مفتوحتين، كل رأس رأت شيئاً مختلفاً قبل موتها، الرأس الأولى رأت نملة كبيرة تسير وراءها مجموعة من النمل، النملة تسير ببطء، كلما أبطأت أبطأ النمل، وكانت النملة الكبيرة تتعمد المشي الكسول، أما الرأس الثانية فرأت ساعة عانقها السيف، عالماً تندس بالخديعة والخطايا، ذهبت بصاحبها إلى طفولته المثقلة بالأمل والتفاؤل والنشوة التي ذهبت الآن، انتهت بشكل بشع قبل أن تحقق أحلامها.

تأمل الرجل الرأسين، حركهما كلعبتي طفل بعكازه، صاح:

"اقذفوا بهما في النهر .. إنهما نجسان"

ابتعد الرأسان في الماء، مضى باقي اليوم في حياة روتينية مغلفة بالقلق، كان الرجل مشغولاً بأفكاره اللانهائية في تدمير العالم من حوله، في دفن المزيد من الجثث والرؤوس في النهر، المقبرة العميقة التي لا يؤمن بغيرها.

لحست الشمس مؤخرة الجبل وراء النهر، وراء المزارع الخضراء، الظلال الباهتة ألقت بنفسها في النهر، امتزج كل شيء برائحة الظلام والمجهول، وبدأت السماء ملونة بفوضى الحروب التي تحاصر العالم، ترشح دمها الغزير لأعلى.

ومع دخول الليل خفضت الأصوات، فقط تبقى نقيق الضفادع في النهر، وراء القرية، كان الرجل قد نام غارقاً في أحلامه المدوخة، تتداخل في ذهنه صور البلدان التي يحلم بالسفر إليها، بعد أن ينتهي من قتل الجميع هنا.

خرجت عارياً من الماء، أحمل قدمي المتورمة أجرها كحافر الحمار على الأرض، تخيلته أمامي ، أحمل منجلاً، أغرسه على بطنه الكبيرة، ينزف دماً في خطوط مستقيمة، أنبش باطنه بأظافري الطويلة، اسمعه يستيقظ مخلوعا:

"بسم الله .. بسم الله"

كان نائماً على سرير منخفض، يكاد يلامس الأرض، حوله الرجال يتناوبون على حراسته، لا أحد يجرأ على الغدر به رغم بكائهم المرير منه، كانوا يفكرون أنه ينام بعين مغمضة وأخرى نصف مفتوحة، ولا سبيل لمواجهته أبداً .

تدافعوا نحوه عندما سمعوه يصرخ، ناهضاً من السرير، منتفشاً:

"سيدنا .. سيدنا هل حدث مكروه"

قال بغضب عندما استدرك أن حيٌّ يرزق:

"أغربوا عني .. هل يوجد مكروه غيركم في هذا العالم"

حملوا أسلحتهم البيضاء، احتلوا أماكنهم المتفرقة حول السرير، كانوا متضمخين برهق السنوات الطوال التي قضوها معه.

بدأت القرية صامتة، هادئة، أو ميتة، ورأيت تحت ضوء القمر البعيد بيوتها، عبارة عن صفين متوازيين يقابلان النهر، تتشابه بوابات البيوت، بما يجعل الزائر لا يميز بينها إلا بتمعن بالغ، كان النهر قابعاً في هدوء غريب كأنه معبود مقدس للطبيعة، ينتظر مولد النور، تماثلت الأشياء في المكان، بحيث يصعب التمييز بينها، لم أميز من بعيد إلا المسجد الوحيد في القرية، بني من الطوب الأحمر وعُرش بجريد وسيقان الدوم، يجلس وسط الرمال الناعمة، الباردة، بنوافذه المشرعة ليل نهار، صلى الرجال الفجر حاضراً يؤمهم سيدهم، انتهت الصلاة ببكاء عميق لسيد القرية، لم يفهم الرجال مغزاه، فلا أحد يجزم أن كان الرجل يبكي حقيقة أم لا، فهو ممثل بارع، علي المرء أن يطيعه في كل الأحوال.

تمتعت برؤية الأرض الخضراء الجميلة، أسير عليها بخطى واثقة، متناسياً جرح قدمي، شاعراً بقوة فائقة تشدني إلى حب الحياة أكثر فأكثر، عندما سمعت صوتاً يناديني:

"تعال يا علي .. أنت محبوب"

تبعت الصوت إلى أن أدركت بيتاً عالياً، لم أراه ليلة أمس، دخلت إلى غرفة تبدو عادية لا شيء يميزها عن غرف بيت جدتي، نوافذها من الخشب وسقفها من الدوم، متسعة ودافئة، ذات أرضية رملية تغوص فيها الأرجل فلا تتسخ، كان الرجل جالساً على كرسيه الوثير، قام من مكانه وسلم عليّ كأنه يراني لأول

مرة، أمر رجاله بتقديم الطعام لي، أفطرت، لم يكلمني، أمر أثنين من رجاله لأخذي في سياحة حول بلده.

اختلفت الأشياء عن منظرها الليلي، تحت سماء غائمة، رزاز المطر يداعب الأجساد العاملة في فلاحة الحقول حول النهر، رائحة الزهور تفوح في كل مكان، الأشجار تتسابق طولاً والعالم يمتد لأوسع مما أتخيل، حدثني أحد مرافقيّ:

"كل هذا النعيم بفضل أسْطَرْ"

الرجل الثاني واصل الكلام:

"أسْطَرْ رجل عادل، جاء كمهدي منتظر، ملأ الأرض عدلاً بعد أن ملأت جوراً "

"حدثاني عن سيدي أسْطَرْ"

"لا تقل سيدي أو سيدنا فهو أن سمعك غضب منك، لا يحب أن ينادى بهذا اللقب"

"كيف تسير الحياة معه ؟"

"يقضي أسْطَرْ النهار مع الناس في الحقول، يزرع مثلهم، بل أكثر منهم"

"منذ متى هو هنا ؟"

"لا نعرف، ربما جاء قبلنا واستحق الحكم، لكن حتى لو تأخر فسيكون هو الحاكم"

تجولنا كثيراً، حتى شعرت بالتعب، كانت قوتي الفائقة قد تلاشت، وجرحي أزداد ألماً، كدت أن أصارح الرجلين بالجرح، عسى أن أجد دواء عندهم، لكني تمالكت نفسي وسكت، قلت لنفسي، جرحي وأنا أتحمله، فأنا لم أجرح في بلادهم.

سلكنا الطريق عائدين تجاه البيوت، قلت للرجلين:

"أسْطَرْ رجل طيب، سنعود إليه الآن ؟"

"لن يراك مرة أخرى " قالها بصوت واحد، كأنما اتفقا على الصيغة، وقبل أن أسأل عن السبب، قال أحدهما:

"أسْطَرْ لا يراه مرة ثانية إلا أهله الذين يحبهم ويحبونه، أنت ضيفه، سيكرمك، يقدم لك الطعام والرزق الوافر، ونحن أهله نطعمك ونحبك، لكن لن تراه بعد"

"إلا يمكن رؤيته أبداً .. أنا مشتاقٌ له، أقسم بالله العظيم"

"لن يحدث ذلك حتى يتأكد من محبتك له، مثلنا تماماً"

"أنا أحبه والله أحبه"

"الحب لا يكون باللسان، لابد من البرهان"

قبل أن أسأل، فهمت أنني حتى لو فكرت في العودة إليه، رؤيته من جديد، لن استطيع ذلك، فنفسي لن تسمح لي برؤيته عندما أنوي حقيقة أن أراه، لكني غالطت نفسي وسألت:

"لو كان عادلاً كما تقولون لقابلني ثانية"

"لا تشك في عدله، ولكن لن يقابلك يا علي، وافهم أن قمة العدل إلا تراه"

الطاعة

1

هل يكون الدخول في الموت نوعا من الطاعة التي لا فكاك منها؟ أنت دخلت الموت عندما قررت ذلك، وكان دخولك عصيانا مدمرا ضد كل الأشياء.. سنوات ستمضي قبل أن تكتشف عمق موتك، وتفاصيل قسوة حياتك.. تخاريفها المنهمكة في تقليب الماضي ورجّ زجاجة الحاضر بنهم شديد، كأنك خلقت لكي تموت، تتعرف على تفاصيل موتك المدمر، في روحك العصية المقهورة، الصاعدة للخوف بأواني الوجع والهستيريا.

مع قوارب الموت التي تسبح بهدوء فوق ماء النهر الشفاف، تموت الأشياء في خجل، كل شيء يكتسب حزنه، وغايته، وتراجعه البطيء إلى المنابع المجهولة، إلا أنت ستظل تبحث عن منبعك، عن نهر حزنك، كيف سار ذات يوم، يدمر الجداول والممرات المتبقية في القلب.

تلك الممرات كانت معبأة بالحنين والإلف، والعشق اللامتناهي للعالم، هذا الذي يبدأ من قلبك وينتهي إليه، مرورا بقلوب الآخرين، ممن أحببتهم، فتساقطوا مع الأيام في أزقة القدر، هل كانوا يظنون أن النهايات ستأتي مستعجلة؟.. أبدا.. كانوا يعيشون على زمرة اللاتوقع، في هدأة توقدهم، وفرحهم المحاصر بالأنين.

بين ليلة وضحى النهار، عاشوا ترف التلهي بالانكسار يظنون أن المرايا المشحونة بالعشق، ستبين صورة القلب، لكن القلب كان يعزف انهياره وحيدا، ممزقا، مهزوما، برائحة زمن آت، لم يولد بعد .

تجلس في المساء عند الصخرة، مراقبا النهر، كم دفنت عيناك من البريق ! وأطفأت من الأحوال والظروف. ترقص النجوم على هيئة الأشجار المتناثرة على الشاطئ، فترى الخوف ممتزجا بالسكون، وتحرك الموج المضطرب، والسماء الباكية في صفحة ورق الماء. تبدو كمن يحاول مراوضة الخوف في الكهوف، مغمض العينين، لكنك لا تقدر على استعادة الحكايات، لا تتذكر شيئا.

لا تتذكر متى داهمك طائر النوم القلق. تستيقظ على صوت العصافير المهاجرة شرقا تجاه الماء، تقوم روحك مدوخة بالسنوات والأشياء، ورهق الأحلام المبعثرة، تهمهم مع الروح متأملا فيما حولك، لا ترى ما يسرك، تأخذ حجرا مصقولا بالوجع، تقذف به في الورق، تسب كل أنواع الشتات والحصار، ومن فجروا فيك اللعنة، لكنك تنسى سريعا، تنهض على شهوة التثاقل مدفوعا برغبة الجلوس، الغوص في الماء العظيم، تقول:

"ما أجمله من قبر"!

تناقض الذات بأن تربة القبور ذات الرمال المتوهجة، أروع بكثير، تشبه حمى ضد ذنوب الطبيعة، ذنوبك.

هل نسيت الحلم القديم؟، غياب الشمس وراء الجبل والنهر، حيث تحلو لك مطاردة الأشباح الثملة، تأتيك أصواتها وتذهب، كأن العالم ما كان، ولن يكون.

تحاول أن تسأل الماء لتعرف الجواب، لا تسأل .

عندما لا تجد شفاءك لتقطيب الجبين، تخلع الطاقية البيضاء، ترمي بها في الطين اللزج، وتغوص برجليك فيه، لا يحفل الطين بك، وأنت تصرخ ضد الجبن والثرثرة والفراغ والخداع.

2

تستعد لمطاردة الأشباح النهارية، ساعة تكشف الشمس عورة العالم، تتشكل الصور في الماء، في الطين، في أعشاب الشاطئ المخضرة بألوان فقاعات الحلم داخل الجمجمة الصغيرة.

كانت الأشباح في ذاكرتك قوما جبارين، تعيد أشكالهم ببذاءتهم، تبصق على الماء، فيحمل التيار البصق إلى مرمى البصيرة، ثم تتلاشى الأشياء مع انحدار النهر، فلا تكون إلا الأشجار الملتفة، أو اللغة الجديدة لعالم يتحرك من حولك بظلال باهتة، تكون روح الظلال تحت الأشجار، تحقن السموم بالعطر، الخوف العظيم الذي اكتشفته متأخرا.

"عليك أن تملأ صدرك بالخوف، تعبئ الحلم بالفؤاد في سفره"

تفكر في طريق طويل يقودك إلى السلامة، ربما سمعته عنه، منهم، أو من ندائك البعيد. تزيح حاجز الضوء من أمامك، تغمض العينين الغائرتين، متأملا الصور بملء ما يكون طمس الرؤية وسوادها رؤية جديدة.

ما حدث في المساء هو الذي أقلقك، جعلك تعتبر حياتك مجرد أكذوبة، حتى أن السماء لم تكن صافية كما تخيلت، كانت ملبدة بالقهر، وفي منتصف الليل انفجرت الأكاذيب تملأ الفراغ حولك، يأبى النوم مراودتك، تعاتب النفس،

وترضى بالسهر حتى ساعات الفجر، تشاهد صور الأشباح المطموسة، تصرخ في أوجهها المقطبة، أوجههم، وجهك: "جبناء.!!"

هل يكون الجبن شرفا لهم؟ وعار عليك؟ أم يكون جائزة لساعات الحلم؟ عندما يعرفون أنك لم تكن تكذب في كلمة تتفوه بها، ساعة لم يكونوا مستعدين لسماعك، كانوا يفجرون الأقاويل، يرفضونك، فرفضتهم وغصت في باطنك بعيدا عنهم، لتحرس في الليل المتأخر ما خبأته السنوات في جرابها الوسخان لتكتشف بعد سنوات أن هذا الليل كان أصدق منهم.

مع وهج الظهيرة، تتابع مجرى الماء إلى بيت، تدخله في كسل لذيذ، تترنم بأغنية شاعت في تلك الأيام، عن البنت التي حذرتها أمها من الذهاب إلى خزان الماء، فخانت الوصية. لا تكمل الأغنية، تدوخ بصفير الشمس، وهدهدة الاستياء، مراقبا همومك، خوفك، عجزك عن تسلق السرير لتنام، تحلم، تشخر في منتصف النهار.

تحيا عصرا، تتذكر أن اليوم الجديد الذي شارف سدرته. الاثنين. عليك أن تتوجه إلى زاوية "الغُبُش" مغربا، لتصلي وتدخل حلقة الذكر، تعود سكران بذكر الله، تحت سماء بشعاع باهر، صاف، تحت عيون تتدلى دموعها، تسلي الذات بغبار الزمن ومرارة السنين القادمة.

ثمة أصوات تناديك وراء العتمة، لا تحفل بها، تقول: "السنوات كاذبة."

أنت تخاف الانجراف، تتذكر السيل الذي يجرف البلدة بلا هوادة، والحقيقة التي يجرفها السيل معه من الزور والقبح.

"انهض.. أيها الثقيل .."

كأنما سوط يضربك على الظهر، لا صوت ولا سوط. تتأمل أرض الغرفة الترابية، عرشها المطلي برماد الوهم، دخان الأيام، تسمع صوتا مغنيا، هل العزاء أن تغني في مثل هذا البؤس؟.

يدوخك الغناء، تدخل في عقلك، تجمع أشياء قديمة، لتصنع منها ألمك المتواصل، تهتف وحيدا:

"لماذا نعشق الألم؟"

تصيح، تطاردك ارتدادات الصوت على الجدار، الألحان النشاز، الأفراح الميتة، الخوف، اعتقالك لذاتك كمجرم منفي الإرادة، تصرخ فيك أشياء خارجة من نشارات الفناء:

"لا"..

تدخل المطبخ، تجلس على الطاولة، تصافح الخصام في الذات، يأبى عليك الكلام، كانت اللغة تنأى كلعنة، تستقر في وحدة الحلم التائه، والخوف يتبدل، ويستقر بعد سفر، يجثم كبيرا، أكبر من كل الدنيا من حولك .